تكريم الوطنية المصرية

في شخص

حضرة صاحب السعادة الوطني الاجل

علي فهمي كامل بك

طبع على نفقة لجنة التكريم

يوزع مجانا

سنة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م

﴿ مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر ﴾

obeikandl.com

على فهمى كامل بك

obeikandl.com

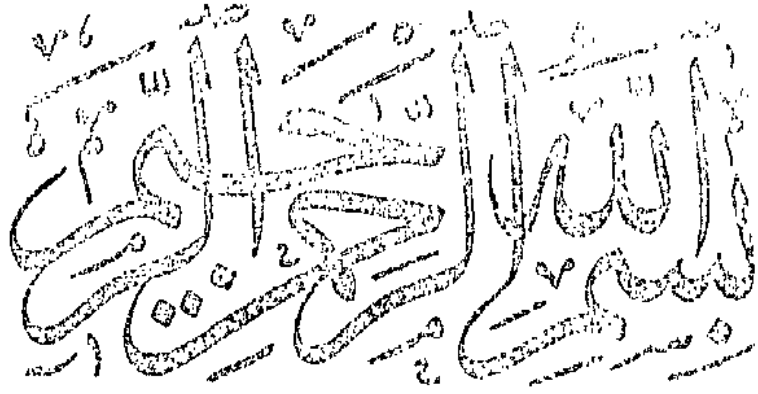

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

أما بعد فقد رأت لجنة تكريم ابن مصر البار بها الوفي بعهدها حضرة صاحب السعادة علي فهمي كامل باك بعد عودته من منفاه أن تقدم للأمة هذه الرسالة لا لتعرف بها رجلا من كبار رجال الكنانة وزعيما من أصدق زعمائها وقد عرفته منذ خمسة وثلاثين عاما رجل الجهاد الصادق والحق الكامل . بل تتقدم بها الى الأمة كهدية تحفظها بين كتبها القيمة وأوراقها النافعة لتكون مثلا من مثل الوطنية الماثلة ودليلا صادقا تنسج على منواله الأجيال المستقبلة .

obeikandl.com

فأن الأمة التى تصبو الى حياة السؤدد والعظمة لفى حاجة إلى ضرب الأمثال والتشبه بأعمال الرجال.

على فهمى كامل بك هو ابن المرحوم على افندى محمد باشمهندس مديرية الدقهلية ولد فى البيت الذى ولد فيه شقيقه « مصطفى كامل » حيى النهضة الوطنية وزعيم الحركة المصرية فى يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر شعبان المكرم عام ١٢٨٧ هجرية — فهو اليوم فى الخامسة والخمسين من عمره أمد الله فيه ونفع الكنانة بجهاده

تربى وطننا العزيز فى مدارس مصر وبعد أن أتم التعليم الثانوى التحق بمدرسة الألسن (الآن مدرسة المعلمين الملكية العليا) ثم بالمدارس الحربية ومنها رقى ضابطا بالجيش المصرى فى عام ١٣٠٧ هجرية وهو فى العشرين من عمره

ولكى نزيد فى الدلالة على قيمة هذا المصرى الكبير نثبت هنا الفصل الذى كتبه رجل من رجال الغرب هو الجنرال « كوردنييه » قائد جيوش فرنسا فى الشرق وجعله

مقدمة لكتاب « المصريين والانجليز » ذلك الذى ألفه المحتفل به باللغة الفرنسية وأودعه جميع أعماله فى المنفى . وهذا هو تعريب المقدمة المذكورة :

« هذا السفر الذى أتشرف بتقديمه للقراء يشتمل على الخطابات التى ألقاها وأهم الاعمال التي قام بها أثناء نفيه ذلك المصرى العظيم على فهمى كامل بك . هذه الخطابات والاعمال التى ترمى الى إنارة العالم بأسره إزاء المسئلة المصرية وإلى استرداد وادى النيل حقه فى الحرية والاستقلال »

« إنه فى هذه الساعة التي تم فيها النصر لفرنسا بعد أن قضى مليون وخمسمائه ألف فرنسي نحبهم حبا فى السلام العام من جهة وفى الاستقلال القومى من جهة أخرى . أولئك الذين استشهدوا حاملين أسلحتهم للذود عن لواء الوطن حتى لاتكون فرنسا مستعمرة ألمانية أو بعبارة أخرى أرضا مهانة مستعبدة — فى هذه الساعة يجب أن يضم إلى صوت هذا الزعيم الوطنى صوت فرنسى ليخاطب الرأى العام الانجليزى باسم الحرية المحبوبة لديه ويقول له ملحا ! « لقد حانت ساعة الوفاء بالعهد الذى قطعه على أنفسهم أمام الملأ أجمع ساسة انجلترا بأن يردوا مصر إلى أبنائها ليكونوا وحدهم المشرفين على مرافق بلادهم :

« ألا إن عظمة أية أمة لا ترتبط أصلا بالمساحة التى تشغلها فوق الكرة الأرضية كما أن النصر لم يتحقق لجنود القيصر بعد أن احتلوا ما احتلوا من خريطة الحرب . لذلك أرى أن بريطانيا العظمى لا تصغر أبدا ولا تخسر شيئا إذا هى سحبت طوعا جنودها من مصر . وأعتقد اعتقادا جازما أن الانجليز المخلصين لبلادهم العاملين لصيانة عهودها وشرفها الناظرين إلى المستقبل بعين القلق من رأيى هذا .

« وعلى الضد فأن انجلترا إذا أصرت على بقائها فى مصر مرغمة الامة المصرية على قبول أكبر إهانة فى الوجود إهانة الاحتلال العسكرى بلا سبب شرعى فأن الحوادث التي يخبئها الغيب لا بد أنها تعاون هذه الأمة المتحضرة ـ أمة مصر ـ على طردها من وادى النيل كما طردت أمة فرنسا ألمانيا من ألزاسها ولورينها . وعندئذ يصيحون فى انجلترا بما يصيحون به اليوم فى برلين : « فقدنا كل شىء حتى الشرف »

« يجب على ساسة انجلترا أن يفكروا مليا فى تجنب هذه الغائلة وإلا فأنها لامحالة واقعة إذا لم يتركوا مصر حرة برضائهم فأن ماتريده أمة لنفسها من العدل والحق يعاونها الله على تحقيقه طال الزمان ماطال ولقد اشتهرت أرض مصر من قديم الزمان بأنها « مقبرة الغيرين عليها »

« أنى وعلي فهمى كامل بك لعلى شيء من القرابة الأدبية لأننا حربيان ولأن أمنا الفكرية واحدة هى الفرنسية العظيمة مدام جوليت آدم تلك التي بثت فى روحينا من سيال وطنيتها القوى وضربت لنا بأعمالها الوطنية المتصلة المثل الأعلى فى وجوب التعلق بالشرف الوطنى

هذه الأم المقدسة التي اذا أمرت أطيعت هى التى اختارتني لأضع مقدمة هذا الكتاب باسم هذه العلاقة وأنها لأوطد العلائق

إن هذا الكتاب يشتمل على مايعرف قارئه عظمة مصر الغابرة وآلامها الحاضرة ونهضتها الصادقة ووطنية أبنائها الوثابة ويجعله يتمنى من سويداء قلبه للأمة التي وضع أجدادها أساس الحضارة الأولى أن تعيش فى مستقبل الأيام حرة مستقلة سعيدة !

نعم إن الحرية بنفسها لاتثقف الناس ولا تهذبهم ولكنهم بدونها لايستطيعون إعداد الاضواء اللازمة لكشف سبل الحياة الاجتماعية وتأمينها . اذ أنها نور الحياة ووساطة الرقى المدنى بكل معانيه . والامة الأنجليزية تعلم ذلك حق العلم من تاريخها الخاص وكيف أنها بعد أن نالت الحرية الكاملة وتخلصت من الاستبداد الجائر رقت رقيا كبيراً فى كل مرفق من مرافقها . . .

على أننا اذا تساءلنا : هل الأمة المصرية ـ فيما عدا حقها الطبعى فى الحرية ـ قد نضجت لديها فكرة هذه الحرية وشعرت حقيقة بأنها

من مستلزمات حياتها وإنهاضها ؟ فأن هذا السفر القيم يجيبنا من بين سطوره عن هذا السؤال إذ أنه يزيح لنا الستار عن هذا الغرض الأسمى ويثبت لنا بجلاء أن الأمة المصرية الحاضرة لامحالة جديرة بكل معانى الحرية !

إن شخصية المؤلف وعلو كعبه فى المسائل السياسية والتاريخية وقدرته النادرة على إبراز الحجج البالغة لكسب القضية التي يدافع عنها — تليق بها أن تبرز للناس هذه الأعمال وأن تدافع عن قضية كبيرة نبيلة مثل القضية المصرية . وأنه فضلا عن إلمامه بكل دخائل السياسة الدولية تراه فى آن واحد متشرعا غزير المادة وخطيبا مصقعا ساحرا بل وشهيداً من شهداء الحرية

« إنى عند ما رأيت على بك لأول مرة قرأت فى جبينه ونظراته قوة الارادة والاخلاص المتناهى . وما سمعته يخطب بحرارته النادرة حتى انجذبت اليه بكل عواطفى إذ لمست فى شخصه الوطنى المتواضع قلب الحر ونفس الأبى ذى العلم المتدفق والوطنية الصادقة والعقيدة التى لاتتزعزع . وما خبرتنى الايام جوليت آدم بتفاصيل سيرته وما تحمله منذ خمسة وثلاثين عاما من الشاق والاضطهادات بسبب افتتانه بحب بلاده حتى أحببته حبا جما واتخذت منه أخا وفيا

نشأ على فهمى كامل بك نفس نشأتى الحربية فقد كان ضابطا بالجيش المصرى سنة ١٨٩٠ وكان يدرس فى آن واحد الحقوق فى

مدرستنا ليضيف إلى صفة الجندى صفة الحقوقى المدنى

هذا ولما ظهرت وطنيته فى جانب وطنية أخيه « مصطفى كامل » حاكمه كتشنر فى سنة ١٨٩٦ وحكم عليه بالاعدام ولولا تدخل السلطة الوطنية العليا فى الأمر وتبديلها هذا الحكم الجنائى بالتجريد إلى صفوف الجند لكان أعدم فعلا

وما كانت جريمته وطنيته فحسب بل لأنه أيضا شقيق « مصطفى كامل » ذلك الذى ظهر فجأة فى عالم السياسة على رأس الحركة الوطنية المصرية لمطالبة انجلترا بالوفاء بعهودها وجلائها عن وادى النيل . ولما لم يستطع رجال الاستعمار البريطانى النيل من ذلك الزعيم الأكبر عملوا للنيل من أخيه الضابط فانتهزوا فرصة تقديمه الاستقالة من خدمة الجيش قبيل إعلان تجريدة دنقله وجردوه من رتبه ليحمل السلاح جنديا بسيطا (مدة سبعة أشهر) تحت قيادة ضباط من الانجليز أولئك الذين حاكموه وجردوه غدرا !

تحمل على فهمى كامل بك هذا الحكم بصدر رحيب ووطنية صادقة وثبات مدهش وكتب لنفسه وللوطنية المصرية صحيفة من من أنفر صحف كرام الوطنيين

وما انتهى استرداد السودان المصرى واطفئت ثورته بقوة مصر ومالها حتى استقال مرة أخرى من خدمة الجيش وأخذ يعمل بعزيمة ماضية فى جانب أخيه فأسس معه مدرسة « مصطفى كامل » فى عام ١٨٩٨

وأدارها ردحا من الزمن وقد أصبحت اليوم فى القاهرة كلية كبيرة تعاون فى جانب أبناء القادرين عدداً كبيرا من الفقراء الايتام على التثقيف والتهذيب . وكذلك اشترك مع أخيه فى تأسيس جريدة اللواء فى عام ١٩٠٠ تلك الصحيفة العربية التي ذاع صيتها والتى بعد أن خدمت القضية المصرية ثلاثة عشر عاما وبثت روح الوطنية السليمة فى أنفس المصريين أغلقها المحتلون فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٢ ولا تزال مغلقة حتى اليوم

« انى وقد كبدتنى الحرب الاخيرة شديد الآلام أرانى على كل حال أسعد حالا من كامل بك لأن وطني ولله الحمد خرج منها حراً فائزاً . أما هو فأن أحزانه وآلامه كل يوم تشتد إذ كابد النفى بعد أن تجرع غصص التجريد والسجن والاعتقال ولا يزال وطنه فى ذل الاسترقاق ! على أنه بالرغم من كونه شقيق شهيد الوطنية وهو نفسه شهيدها فانه مستعد مع إخوانه المخلصين لان يمدوا أيديهم الى أيدى المعتدين على حقوق بلادهم إذا كف هؤلاء عن مواصلة اعتدائهم وانجلوا عن وادى النيل برمته وتركوه مستقلا استقلالا فعليا !

« إن أكبر فضيلة وطنية فى على بك هى أنه لا يحمل ضغينة لأى وطنى من مواطنيه ولا يعرف اليأس أبدا . وما استمراره فى الجهاد الوطني طول هذا الزمن حتى وهو فى المنفى الا دليلا على رجائه التام وإرادته القويه . وإنه يرمى بنشر بعض أعماله المسطورة فى هذا

الكتاب إلى غرضين ظاهرين . الأول إقناع انجلترا بأنها تربح ربحا كبيرا إذا هي تركت الأمة المصرية سيدة نفسها تدير شؤونها كما تريد ـ هذه الأمة الواثقة من مقدرتها وشخصيتها المتمسكة بكامل حقها فى الحرية . والغرض الثانى أن يشعل الحمية فى أنفس مواطنيه حاربا لهم بجهاده المتصل المثل الاعلى للوطنية المضحية حتى يضاعفوا الجهاد مثله ويحققوا استقلال أرض الفراعنة . .

«فاذا قرئ هذا الكتاب فى انجلترا عامة وعلى الاخص بعد نقله الى اللغة الانجليزية فانه لامحالة ينير النفوس الحرة العديدة التى تؤلف أغلبية الشعب البريطانى المتطلع الى معرفة الحقائق ولو كانت ازاءها ضد نفسية المستعمرين . وكذلك إذا قرىء فى مصر خاصة فانه يزيد الشعب المصرى حرارة وينمى فى نفسه الصفات اللازمة لترسيخ الوطنية صفات الصدق والحب والمثابرة حتى تنقشع رزايا الاستعباد عن واد هو خير الوديان فتعود سماؤه الى صفائها القديم صفاء الحرية والعمل وسمو الحياة !

«إن فرنسا التى سارعت فى الماضي مع «لافيت» لمعاونة أمريكا على خلاصها من ربقة النير البريطانى وقد بلغت بها إلى ما تصبو اليه من حرية واستقلال والتى ساعدت فى عام ١٨٥٩ فكتور عمانويل على تخليص الوحدة الايطالية من الاستعباد النمسوى ! والتي سارت مع « ويجند » الى بولونيا لمؤازرتها على إنقاذ حريتها من مخالب ثلاث

دول كبيرة ! — إن فرنسا هذه لواجب عليها أن تضع يديها فى يدى انجلترا ومصر لتقرب كلا منهما إلى الاخرى على أساس العدل والحق والحرية والمساواة .

ألا إن النيل الذى بمده يحى موات أرض مصر ويكشف بجزره عن آثار نادرة طوتها أرض مصر لجدير بأن يشهد من جديد حرية أمته الكبيرة القدر الجليلة الأثر كما شهدها منذ أكثر من ستين قرنا من الزمان . تلك الحرية التى ينشدها على فهمى كامل بك مع بنى وطنه والتى لابد أن يرفرف لواؤها على ربوع وادى النيل كما يحتم الحق والانصاف .

توفى فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٣

(الامضاء) (الجنرال كوردنييه)

القائد السابق لقوات فرنسا فى الشرق

*
* *

هذا ماشهد به جنرال من أعظم جنرالات فرنسا ومن أكبر الحائزين لأسمى أوسمة بلاده وشارات فخارها. وإننا لو أضفنا إلى هذه المقدمة ما كتبته مدام آدم

نفسها وما قدمه نواب إيطاليا والنمسا وسويسر والمانيا وبلجيكا من الاطراء لنفسية المصريين فى شخص على فهمى كامل بك أثناء نفيه لوجدنا أن زعيمنا الطاهر الفؤاد النقى الصحيفة الغزير المادة القوى الحجة الذى لا يخشى فى الحق غير الحق قد شرف مصر ورفع قدرها الوطنى بجهوده المتصلة وتضحياته العديدة

ذكر لنا جناب الجنرال «كوردونييه» حادثة الجيش وتأسيس المدرسة واللواء كما ذكر لنا بعض مناقب وطنينا جل وفى الجملة فان ما نشره من فضائل المحتفل به لم تكن شيئا مذكورا فى جانب ماسطره له تاريخنا الوطنى. أفهل ننسى أنه كان بحادثة الجيش أول تضحية ضحت بها مصر فى سبيل وطنيتها الصادقة وحقها المسلوب؟ أفهل ننسى أنه مع شدة الصدمة لم ييأس ولم يتحول قلبه عن حب الوطن؟ ألا نذكر أنه عاون أخاه مصطفى كامل أكبر معاونة يقدمها وطنى مخلص لزعيم كريم كبير يعمل لنشر مبدأ وإحياء أمة؟ أيفوتنا أنه منذ أسس اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ إلى

مابعد وفاة موجد نهضتنا فى ١٥ يوليه سنة ١٩٠٨ لم يترك على بك القاهرة يوما واحدا مداوما على العمل ليل نهار دون أن يعرف للراحة طعما خادما المبادىء الوطنية ومراقبا المدرسة ومديرا للالوية الثلاثة : أننسى أنه كان الساعد الايمن لأخيه فى إظهار الحزب الوطنى مظهره الاخير حتى انتخبته الجمعية العمومية فى ١٤ فبراير سنة ١٩٠٨ وكيلا له ؟ أننسى وقفته بالمدينة المنورة فى سنة ١٩٠٨ نائبا عن جلالة أمير المؤمنين باعثا صوته فى الناطقين بالضاد احتفاء بافتتاح السكة الحديدية الحجازية ؟ أننسى وقفته فى مشروع مد امتياز قناة السويس يوم بلغت خطابته الفريدة فيه الى أعماق قلوب الأمة بأسرها؟ أننسى تضحيته باللواء عندما تولى أمره الحارس القضائى فى ٢٨ فبراير سنة ١٩١٠ استبقاء للحزب وصيانة لمودة أعضائه العديدين ؟ أننسى أنه بالرغم من مرضه وارتفاع درجة حرارته الى أربعين درجة قد قصد مع إخوانه فريد بك وأعضاء الحزب إلى مسرح « بلوت باسك » بالقاهرة وألقى خطابته الشهيرة التى حمل فيها حملة وطنية صادقة على الرئيس

الأمريكي روزفلت عند ما اعتدى على شعور الأمة المصرية في ٣٠ مارس سنة ١٩١٠ ؟ أتنسى له ذلك الموقف الوطني العظيم وتلك الهمة الشماء يوم وقف سير إدورد جراي وزير خارجية انجلترا بمجلس العموم في يونية سنة ١٩١٠ وقال : « يجب النظر في المعاهدات البالية التي تربط العالم بمصر . . » فسجل وطنينا بوصف أنه نائب رئيس الحزب حملته الوطنية الصادقة على اعتداء السياسة الانجليزية واقترح عقد مؤتمر بأوربا لتفصح فيه حالة مصر وآلامها الأمر الذي أقرته اللجنة الإدارية للحزب وحبذه رئيسه المرحوم كل التحبيذ . وما أخذ ينشر مقالاته المؤثرة في وجوب العمل لهذا المؤتمر حتى كانت الأمة المصرية بأسرها مع حزبه في هذه المهمة السياسية الخطيرة فتبرعت النفوس الأبية بالمال وتألف وفد من اثنين وعشرين أستاذا وذاتا من أبناء البلاد المخلصين برئاسة المحتفل به وهم حضرات :

اسماعيل بك لبيب . وعبد الله بك طلعت ، ومحمود بك فهمي حسين : وحسن بك عمار : وأحمد بك حسني

ومصطفى بك توفيق الجراحى : وحسين أفندى طنطاوى وعبد الحميد أفندى مرسى منير . والشيخ محمد عبد الغفار عمار وعلى أفندى حيدر . ومحمد أفندى أبو المجد . والدكتور محجوب بك ثابت . ومصطفى بك الشوربجى . وأمين بك الرافعى : وفؤاد بك حسيب . وأحمد أفندى صبرى ومحمد أفندى هريدى . ومحمد أفندى ابراهيم . ومحمد بك على المهندس : وحافظ بك عابدين . وعبد العزيز بك دويدار والمرحوم عبد الحميد بك عمار

سافر ذلك الوفد الوطنى بين هتاف الأمة وترحيبها الى ثغر الاسكندرية ومنها أبحر على باخرة خاصة إلى أوربا حيث التقى بالرئيس المرحوم وبلجنة تنظيم المؤتمر وبمندوبى جميع الأمم الاوربية الذين بلغ عددهم خمسمائة نائب فى مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا حيث انعقد فيها المؤتمر من ٢٢ الى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٠ ؟ أننسى أنه رغما من عدم درج اسمه خطأ أو عمدا بين أسماء أعضاء هذا المؤتمر مع جهوده الظاهرة فيه فأنه ماتأثر ولا تكدر شأن الوطنى الذى

يجاهد لخلاص وطنه من عار الاحتلال سواء أذكر بين العاملين أم لم يذكر وقد ألقى فيه خطابة طويلة باللغة الفرنسية ألقاها عن ظهر قلبه بالرغم من كثرة أرقامها وتعدد تواريخها الأمر الذى نال إعجاب الحاضرين جميعا ؛

أننسى إنكاره ذاته إذ وقف فى يوم الجمعة ٢٠ يناير سنة ١٩١١ بين أعضاء الجمعية العمومية للحزب الوطنى ونادى بانتخاب فريد بك رئيسا له مدة حياته وصوب بهذا النداء سهما قاتلا إلى أكباد المتصيدين فى الماء العكر الساعيين فى الانقسام ؟ أننسى أعماله فى المؤتمرات التى عقدها الحزب داخل مصر وخارجها ؟ أننسى خطاباته الشهيرة فى سواكن والقاهرة والزقازيق والاسكندرية والاستانة والمدينة المنورة ودمشق وبيروت وبروكسل وباريس وروما ولوزان وبرلين ؟ أتنسى أحاديثه القيمة مع الصحف الاوربية محلية كانت او أجنبية وبالاخص أيام انعقاد المؤتمر المصرى ذلك الذى نظمه حزب الأمة برئاسة المرحوم رياض باشا حيث أعلن للملأ أجمع تجنب الحزب الوطنى الدخول فيه

حتى لا يشترك فى تأييد الانقسام بين عنصرى الامة المسلمين والاقباط ذلك الانقسام الذى لا محالة يضر مصر ويخدم السياسة الانجليزية ؟ أننسى شجاعته الصادقة أمام النيابة العمومية يوم بدأت التحقيق مع رجال الحزب فى يوم الاثنين أول أبريل سنة ١٩١٢ على أثر الخطابة التى ألقاها فريد بك فى الجماعة العمومية للحزب فى يوم الجمعة ٢٢ مارس سنة ١٩١٢ تلك الخطابة التى تنصل الكثيرون من تبعتها إلا هو فقد جاهر بأنه قرأها مع الرئيس المرحوم وأقرها ولا يزال يقرها! وقد ترتب على تصريحه هذا وعلى تعليقه على الخطابة بما توجبه الوطنية الصادقة محاكمته جنائيا والحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر قضاها من أول أبريل لغاية ٢٧ يوليه سنة ١٩١٢ فى سجن الاستئناف بالقاهرة! أننسى له موقفه بعد خروجه من السجن هذا إزاء مقالة فريد بك التى نشرها بجريدة « السيبكل » فى ١٢ أغسطس سنة ١٩١٢ ونشرت جريدة المؤيد تعريبها فى ٢١ أغسطس. تلك المقالة التى حمل فيها المرحوم على مقام

الخديوية المصرية حملة شعواء . وقد بذلت المساعى الجمة لديه ليرد على رئيسه المرحوم فلم يقبل وأظهر إباء كبيرا نجم عنه إغلاق اللواء وبيع أدواته فى المزاد العلنى وخسارته فيه خمسة أثمان رأس مال الشركة أى مبلغ خمسة وعشرين ألف جنيه حبا فى مصر وخدمة لقضيتها ؟ أننسى وقوفه فى وجه الذين أرادوا محاكمة فريد بك بسبب هذا المقال محاكمة حزبية إذ أغلق نادى الحزب فى وجوههم وامتنع كل الامتناع عن جمع الجمعية العمومية حتى لا يخذل الرئيس الوطنى وينصر خصومه عليه ؟ أننسى كتاب الرئيس المرحوم الذى أرسله إليه وإلى جريدة الأهرام ونشرته فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩١٢ وفيه شكره كل الشكر على وطنيته الخالصة الامر الذى اسودت به وجوه المفرقين الخاسرين ؟ أننسى أنه اعتقل فى بدء الحرب وروقب فى إبانها ؟ أننسى همته التى ظهرت عقب الهدنة إذ لمَّ مع إخوانه الصادقين شمل الحزب داخل البلاد وأخذ يعمل بكل جهد مع العاملين لنصرة قضية الحرية والاستقلال إذ دوى صوته الرنان فى كل مكان

بالقائه الخطابات السياسية العديدة كما كتب بقلمه السيال وعلمه الغزير المقالات المؤثرة الفائضة بالحقائق ونخص بالذكر تلك المقالات الوطنية الشيقة التى كتبها بعنوان « لو كنا مستقلين » والتى يذكرها حتى اليوم جميع المصريين ؟

نفته السلطة العسكرية البريطانية فشيعته الأمة بقلوبها وأصواتها وأظهرت شعورها الصادق نحو خادم مصر الأمين فى كل حىّ وفى كل بلد وأقامت له حفلات الترحيب والاكرام . وعلى الأخص عقائل السيدات اللاتى أظهرن نحو وطننا شعورا لم يظهر من قبل نحو خادم من خدام مصر .

أبحر من ثغر الاسكندرية حاملا ذكرى تلك الحفلات التى تجلى فيها الشعور الوطنى فى أجمل مظاهره فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢١ فطيرت الاسلاك البرقية نبأ رحيله إلى كل مصر وما بلغ إلى اليابسة الأوربية حتى كان فى استقباله بطل الجهاد الوطنى الكبير عبد الحميد بك سعيد والكثيرون من أعضاء اللجنة التى برأسها فى روما وجميع أصدقاء مصر

فيها . وما لبث إلا قليلا حتى رفع صوت مصر الصادق النبرات فى أجواء أوربا وأجرى قلمه على صحفها المتباينة وحضر المؤتمرات الدولية والاجتماعات البرلمانية وقدم المذكرات الضافية وألقى المحاضرات العديدة حاضنا رجال السياسة وكرام الكاتبين على خدمة مصر والدفاع عن أرض الفراعنة كما حثهم على تصنيف ما يزيح الستار عما فيه مصر العزيزة الاثرية من ويل وإذلال وآلام . ذلك الدفاع الذى لايزال صداه يرن فى آذاننا والذى لايمكن أن ينساه مصرى جدير بالانتساب إلى مصر وقد سجله تاريخنا الوطنى فى صحيفة الشرف والفخار والذى لو أردنا جمعه لاحتجنا إلى أسفار ضخمة بيد إنا نرى من الواجب علينا أن نثبت فى هذه العجالة عملا صغيرا من تلك الأعمال الجليلة الكبيرة التى قام بها فى منفاه ولقد تخيرنا لذلك الخطابة التى ألقاها بمدينة مونمورنسى الفرنسية فى ٢٩ يناير سنة ١٩٢٢ على جمع حافل من كبار النواب والكتاب والصحفيين الأوربيين كوذلك الخطابة التى ألقاها فى مجلس الشيوخ الفرنسى فى ٢٠

ديسمبر سنة ١٩٢٢ وقد كان طبعها فى كراسة خاصة وزعت على جميع الساسة وعلى أعضاء مؤتمر لوزان الاخير . وقطعة ثالثة هى ذلك الخطاب البليغ الذى أرسله للساسة عامة ولرئيس الوزارة الانجليزية خاصة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٣ محتجا على بقاء الاحتلال الانجليزى فى وادى النيل . وكل منها نشرته الصحف المصرية فى حينه بين ما نشرت لزعيمنا الكبير من جلائل الأعمال :

أما الخطابة التى تخيرناها فهذا هو نصها :

« أيتها السيدات : أيها السادة

أنى اذا وقفت بينكم لأحدثكم فى شؤون وطنى العزيز فانما أقف لأرسل صوت مصر إلى أسماع خدام الحقيقة ورسلها. المدافعين عن الحرية ولوائها . الهادين الامم وقادتها الى السبيل السوى . العاملين لتخفيف آلام الانسانية . الزائدين عن الحقوق المهضومة الحارسين صرح العدل . المجدين فى تقريب الشعوب بعضها من بعض على أساس الحق والانصاف . . . إلى غير ذلك من الجهود المشكورة التي سداها الأخلاص ولحمتها الفضيلة ، والتى هى واجب مفروض

علي كرام الكاتبين والصحفيين الصادقين فى كل زمان ومكان !

أجل . أشعر شعورا صادقا وأعتقد اعتقادا سليما . أنى واقف أمام حملة أقلام سياله مؤثرة لو أجروها علي القرطاس لمناصرة الحق المسلوب لردوه إلى ذويه . ولو بذلوا بعض جهودهم لأقامة العدل مقام الظلم وأحلال الانصاف محل الاجحاف لأدوا مع المخلصين أكبر خدمة للأنسانية المعذبة ولكانوا من أكبر عوامل السلام بين الأنام

أنى لا أشك مثلكم فى أنه مستحيل أن يكون جميع الناس مخلصين للحق والعدل إذ المنافع الشخصية والميول القومية والحيل السياسية تحول أحيانا بين بعض المرشدين وبين الحق الملموس والعدل المفروض فيحاولون بقوة مداركهم وسيولة أقلامهم أن يطمسوا معالم ذلك الحق ويشوهوا هذا العدل بنظريات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب وهم عالمون أنهم غير مخلصين للحقيقة ومدفوعون بهذا الضلال لخدمة الباطل علي كل حال !

إن للصحافة فى العالم المتحضر مقاما عليا واحتراما كبيرا لأنها غذاء الافكار وروح الاجتماع فأن هى ذهبت الى اليمين ذهبت شعوبها معها وأن هى تحولت الى الشمال تحولت كذلك معها . فأن كان ثمة خطأ فى أحكام الأمم فأنما يكون مصدره الصحافة التي أرشدتها وحملة الاقلام الذين أضلوها السبيل !

إن شعبا من الشعوب لا يلام إذا جهل الحقيقة بل اللوم كل اللوم يقع لامحالة على رؤوس الصحفيين الذين ستروها عن أعينه بحجاب كثيف مقدمين له صورة من الباطل فى لباس هذه الحقيقة متقنين صنعها متردين برداء الوطنية الكاذبة متخذين من منافع بلادهم وعظمتها وسؤددها برهانا غالبا وحجة بالغة ليحققوا مبادىء المستعمرين ولو طعنت فى سبيلها ملايين الاكباد البشرية وأهدرت بحورا من من الدماء الزكية !

لا ينكر أحد كذلك أن بين ساسة انجلترا الاحرار وكتابها وصحفييها من عشقوا العدل واحترموا الحق باحترام الوعد والميثاق فلا يتحولون عن نصرة الحقيقة ولا يرضون بأى حال ان يثلم ساستهم المسئولون شرف بلادهم الوطني وهو من الامة مرآتها وتاجها وصحيفتها الخالدة وعنوان مجدها . . . . .

أولئك على قلتهم لا تشترى أقلامهم وضمائرهم مثلما تشترى قلوب بعض السياسيين وألسنتهم وأقلامهم !

ولتسمحوا لى أن أضرب لكم مثلا بانجليزى من هؤلاء الكتاب النبلاء عاش فى مصر خمسة وثلاثين عاما خبر فى مداها النفس المصرية أحسن من كثير من بنى وطنه كما وقف على جميع الدخائل الاستعمارية البريطانية بشأن مصر . ذلك هو صديقنا مستر ولفرد أسكوين بلنت (١)

---

(١) انتقل من الدار الفانية الى الدار الباقية فى ٨ اغسطس سنة ١٩٢٢

الصهر الصغير للوردبيرون (شارع انجلترا الشهير)

لقد ناضل هذا الانجليزى منذ شبابه عن حق بلادنا فى الحرية والاستقلال بحمية وأخلاص حتى اكتسب محبة أمتنا التى من صفاتها الخالدة الاعتراف بالجميل لمسديه !

إن من آثار هذا الكاتب المجيد ذلك الخطاب القيم الذي بعث به إلى الأمة المصرية فى شخص حزبها الوطنى عند ما عقدنا مؤتمرا سياسيا بمدينة بروكسل عاصمة بلجيكا فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٠ . وقد طبع ذلك الخطاب فى مجموعة أعمال المؤتمر . وأنى استميحكم الأذن لأتلو عليكم بعض فقراته :

قال مستر بلنت فى صفحة ٨٦ من مجموعة ذلك المؤتمر مانصه:

« إن أنا نصحت لكم فأنى أجد عناء كبيرا فى هذا النصح لأنى أشعر فى نفسي بوطنية مؤمنة نحو بلادي انجلترا واوأنى أبغض سياستها الجائرة فى الشرق مخالفا بذلك الشعور العام لبني وطنى . بيد أنى أجد من الواجب المفروض على إزاءكم أن أصارحكم القول بأن الوطنية المصرية تعرض كيانها للسخرية فى مستقبل الايام إذا لم تعاملنا معاملة الاعداء »

وقال فى صفحة ٧٧ ما نصه :

«إن قيام الحزب الوطني المصرى حتى هذه الساعة بعمله المجيد

رغما من وجود مصر نحو ثلاثين عاما تحت تأثير يد كيد دولتنا عاملة بجميع الوسائل لأماتة الشعور الوطنى فى نفوس أبنائها لدليل قائم على أن لدى هذا الحزب من عناصر الحياة مامن شأنه التغلب على هذه الأزمة وكل أزمة سواها ! أنى لا أشك فى أن يوم حرية مصر سيأتى لا محالة وليس دنوه إلا موكولا إلى شجاعة أبنائها وإصرارهم ! فواجبكم أيها المصريون ألا تيأسوا وألا تفتر عزيمتكم إذا عوملتم فى مستقبل الأيام معاملة قاسية فأنها لايمكن أن تدوم ! ألا إن مصر اليوم لمتفوقة فى سبل الترقى . والعالم المتحضر لاينظر إليها كما ينظر إلى تلك الاقاليم التعسة العائشة فى تلك الامكنة السحيقة من أفريقيا وأسيا والتى لايسمع لها صوت ويعمل حكامها فيها ما يشاؤون بلا رقيب ولا حسيب ! . عليكم ألا تنسوا كذلك أن حركة كحركتكم لا تنجح بغير تضحيات وبدون شهداء ! فليس أمامكم إذا لاسترداد حريتكم إلا أن تجاهدوا بشجاعة فى داخل بلادكم وتشنوا الغارة الادبية فى خارجها كما فعلت جميع الأمم التي كانت فى مركزكم ! استعدوا لتحمل صنوف الأحكام السياسية فى القاهرة إذا دعا الحال إلى ذلك وداوموا على عقد مؤتمراتكم فى عواصم البلاد الحرة ليقف العالم المتحضر على رزئكم وليحكم بيننا وبينكم !

« إننا نحن الانجليز لابد أن ننتهى يوما إزاء جهادكم المستمر

بأن نتوارى خجلا بسبب محاولاتنا غير الشرعية وغير المنتجة فى فى بلد لم يكن لنا وأنه بقوة وطنية أبنائه يحرج على الدوام مركزنا ويجعلنا فى كل عام أقل نفعا . وأحط شرفا . ! »

وقال فى صحيفة ٨٧ و ٨٨ مانصه :

« . . . إنى أوجه الخطاب لكم أيها المصريون آملا ألا تثقوا بنا لأ ننا لانريد لكم خيرا ! فلا حرية ولا دستور ولا علم ولا شىء من وسائل رقى الأمم تبلغون اليه على أيدينا . إننا لم نكن فى بلدكم إلا لنستغل أقطانكم لمعامل منشستر ولنستخدم ماليتكم لنبسط ملكنا الأفريقى فى السودان ! ولنمكن لشيطان المضاربة فى مرافقكم بأسلوب أشد مما كان فى ماضي الأيام دون أن نستشيركم حتى فى الشكل ؛ ولنسلمكم مغلولى الأرجل والأيدى لجميع دراميننا التجارية ! وليس لكم أى عذر فى أن تخدعوا عن نياتنا وأغراضنا لأنها جلية البيان ظاهرة للعيان حتى لاتستسلموا الأذلالكم وخراب بلادكم !

« وتلك نصيحتى للحزب الوطنى ! استمروا على الدوام مستبسلين فى معارضتنا معارضة علنية جريئة ! أطلبوا بقوة اتحادكم وجهادكم المساواة التامة بينكم وبيننا وسحب جنودنا من بلادكم وعدم تعرضنا لأموركم ! إنكم لاتخسرون شيئا إذا استعملتم معنا هذه اللهجة فأننا

أجانب فى دياركم ولكم الحق كل الحق فى أن تجهروا بمثل هذا القول والربح مؤكد لكم على كل حال ! ذكرونا دائما بجميع وسائل النشر أن ليس لانجلترا أى حق شرعى فى التسلط على مرافقكم والسيطرة على سياستكم وأنكم غير راغبين فينا لاحماة ولا مشيرين ولا إداريين : ولا تتركوا لنا أي عذر نتحله لندعى غير ذلك ! صارحونا القول بكرهكم لوجودنا بينكم وبغضائكم لنا واتخذوا سلاحكم السلمى من الوسائل الفعالة التى استخدمتها الامم ضد الأجنبى المسيطر على بلادها والتى بها أظهرت استياءها من وجوده بين ربوعها وليست مقاطعته التجارية والابتعاد عن معاملته إلا من تلك الوسائل ! إن لديكم جاليات أجنبية عديدة غير انجليزية ففى وسعكم أن توثقوا عرى المعاملة معها وحدها دون معاملتنا ! وتقربوا من كل العالم إلا نحن فلا تقربونا حتى لا يذهب جهدكم سدى !

« إن ما توجهونه إلينا من النداء باسم العدل والشرف والانسانية ليس فى الحقيقة إلا عملا بائدا لا جواب عنه من لدن ساستنا وأدلائنا إلا الاحتقار والسخرية ! كلا . ليس أمامكم إلا وسيلة واحدة بها تقنعونا هى أن تقلقونا أقلاقا عمليا بلا انقطاع حتى ندرك أن احتلالنا لوطنكم يسبب لنا النصب المتواصل والفشل الدائم والحيرة التامة تستوى فى ذلك أيام السلم وأيام الحرب ! وأن اليوم الذى فيه تعمم جهودكم ويتسرب إلى عقلية أمتنا المخيم عليها الظلام أن لا ربح لنا

من المقامرة فى واديكم فاننا لاشك نسلم باصابتكم وبحقكم و نتركم فى الحال بلا إمهال ! »

هذا ما قاله المستر بلنت منذ أكثر من إحدى عشرة سنة وهو الكاتب الانجليزي الكبير والوطني العظيم الذى عرف روح الوطنية المصرية معرفة تامة كما وقف كل الوقوف على أطماع مواطنيه من المستعمرين والماليين إزاء بلدنا الامين ! فهل كان خاننا لوطنه عند ماجهر بهذا القول الجلى مؤكدا سوء نية انجلترا ومخالفة ساستها لما يقضى به الشرف ؟ وهل كان جاحدا للوطنية عند ما أبان لانجلترا أن وجودها فى مصر عديم النفع عديم الشرف ؛ وهل كان معتوها لحضه المصريين على الجهاد السلمى إنقاذا لحريتهم وشرف وطنهم ؟ كلا . إنه وطنى ! وما أراد بما كتبه وسجله فى كتاب الدهر إلا أن يخدم بلاده فى شرفها وفى مستقبلها ! عالما أن انجلترا إذا وفت بعهودها وأقسامها وتركت مصر حرة مستقلة تربح لامحالة حبها ومعاونتها ويكون لها من وراء ذلك نفع كبير !

إن مستر بلنت الذى كان أول انجليزى خبر مصر قد أدرك أن شعبها الصادق فى وطنيته يبقى على الدوام مستمداً حياته من تقاليده السامية ومفاخره القديمة التى فاقت مفاخر جميع الشعوب ! علم أن مصر ليست جاهلة ولا منحطة حتى لاتشعر ولا تتألم بل إنها مصر المثقفة

مدارك أبنائها المهذبة نفوسهم الابية قلوبهم الرفيعة رؤوسهم وأنها ليست فى مدنيتها العصرية إلا شطرا من مدنية أوربا ! فقه أن الأمة المصرية تجدُّ لأدراك الرقى بجميع صنوفه كجميع الأمم المتحضرة سواء بسواء وأنها لاتذعن للاستعباد ولا تخضع للرق وقد خلقت لتكون فى صدر العالم حرة مستقلة !

يعلم مستر بلنت أن صرخات أبناء الكنانة يسمعها الكون كله وتدوى فيه دويا وأن ليس على خريطة الكرة الأرضية بلد شرقى خالط أبناؤه الغربيين مثل مصر ! وأن طلاب العلوم والفنون من أبناء مصر الفتاقوهم آلاف فى جامعات أوربا وأمريكا إنما يعيشون فى أوساط مستقلة وأجواء حرة وأنهم لامحالة يعودون إلى بلادهم وفى قلوبهم سيال الوطنية . وفى رؤوسهم نور المدنية . وفى أيديهم ألوية الحرية وفى أنفسهم حب السيادة القومية . فيعملون بجد وحمية عمل آبائهم وأخوانهم الاحرار ليبدلوا معهم الحال غير الحال ولينهضوا مع الناهضين بكرة وعشيا واهبين جيوش الأخلاص والخلاص ساعدا قويا !

يعلم مستر بلنت مافوق ذلك : يعلم أن سبب سقوط الأمم من ذروة المجد إلى هوة الانحطاط هو عسفها وجبروتها واحتقار أبنائها لشرف بلادهم الوطني وللوفاء بالعهد !

وأنه إذا كان هذا الانجليزى وبنو وطنه الأحرار لم يدركوا

حتى الساعة بجهودهم برّ حكومتهم بأيمانها ووفائها بعهودها وصيانة شرفها من الدنس تجاه مصر وأمتها فأن المصريين أنفسهم بصادق نهضتهم وجلائل أعمالهم وبدعوتهم العالم بأسره للأخذ بناصرهم ومعاونتهم على استرداد حريتهم إنما يؤدون كذلك خدمة كبيرة لانجلترا بأرغامها على انجاز وعودها فتصون شرفها بجلائها عن وادى النيل !

تعلمون أيها السادة أن مافعلته ألمانيا من ضم مقاطعي الالزاس واللورين الفرنسيتين إلى بلادها واستخدامها جميع وسائل أماتة الشعور فى أنفس أهلها خمسين عاما كاملا لتنسيهم وطنهم فرنسا وجنسيتهم الفرنسية لم تنسهم الوطن ولا الجنسية ! فأنه ما أذن مؤذن الحرب حتى طار الألزاسيون واللورييون بأرواحهم وما ملكت أيمانهم الى أمهم العزيزة وطنهم المقدس . فخدموه خدما لم يعلم العالم منها إلا قليلا ولا بد أن يكشف التاريخ عنها جميعا !

وتعرفون تلك الأجناس القليلة العدد الكثيرة الاسماء التى خضعت بالقوة لحكم النمسا زمنا طويلا والتى كانت حتى الهدنة جزأ لا يتجزأ منها فقد عملت بكل قواها للانفصال منها بل وقد كانت عاملا من أكبر عوامل هزيمتها وأنها ما بذلت تلك الجهود إلا لتكون حرة مستقلة وقد بلغت إلى ما أرادت واستردت حقوقها كاملة !

وعندكم مثل بولونيا وشليزويج والممالك الروسية والممالك الشرقية

التى جمعت وحدتها واستقلت بعد هذه الحرب الضروس وكانها كانت فى صف الحلفاء بالقوة والعواطف لتصل إلى هذه النتيجة نتيجة الحرية والاستقلال من أيدى ظالميها وغاصبيها والمخالفين لها فى الجنسية !

وكذلك أغلب المستعمرات الانجليزية فانها بعد هذه الحرب الضروس قد أنقت عن أكتافها شطراً كبيراً من حمل السيادة الانجليزية وفى مقدمتها أيرلندا التى كانت جزأ لا يتجزأ من انجلترا والتى هى حارس البحر الأطلسى وذات علاقة كبيرة بالحياة الانجليزية حربية كانت أو اقتصادية

جرى هذا فى انجلترا بينما بقية البلاد المرفرف سلطانها عليها قد ثارت ضدها من كل صوب ولاتزال ثائرة تضحى بكل عزيز لديها فى سبيل أشرف غاية وأسمى مطلب غاية الحرية ومطلب الاستقلال !

ألا إن هذه الحوادث التى جرت فى الكون بعد هذه الحرب الزبون لم تجر إلا طوعا لنزعة خلقت مع الأنسان . نزعة الحرية التى لاثمن لها ؟

تصوروا أيها السادة أن قوة صادرت حرية أعضاء الجسم فى تأدية وظائفها الطبعية فهل تكون ثمة حياة ؟ كلا . يقف القلب ويبقى الجسم جثة هامدة ؟ كذلك الأمة فأنها فرد متكرر فان صدمت قوة

رؤوس أبنائها حتي لاتفكر وغلت أيديهم حتى لاتكتب وحيل بينهم وبين استماع أخبار العالم حتى لايتحركوا وكفت أعينهم حتي لايروا فأن هذه الامة وقد عطل سمعها وبصرها وفؤادها وأصبحت خشبامسندة لاتجد أشهى من أن تلفظ نفسها الأخير حتى لاتكون ميتة فى عداد الاحياء وقد خلقت لتحى فى الاموات !

لهذا كان ويكون مستحيلا على أيه قوة بشرية فى الوجود أن تخضع لحكمها الجائرأو لسلطانها المحرم طبيعة وشرعا أمة كبيرة العدد أو صغيرته وفيرة العدد أو قليلتها رغم أنفها حتي لو قدمت لها الشهد طعاما والذهب أحمالا فأنها لاتجد فيها على الدوام إلا عدوتها الغادرة وخصيمها المبين سالب حريتها ومذل وجودها !

أيها السادة

أن مركز انجلترا فى مصر غير شرعى ! فأقسامها وعهودها وجهرها بالجلاء عن الكنانة وبلادها مسطورة فى التاريخ مسجلة فى كتاب الدهر مرفوعة صحيفتها بين الارض والسماء ليقرأها الناس جيلاجيلاقياماً وقعودا وعلى جنوبهم ! وستبقى هذه الصحيفة فى مكانها وشرف انجلترا معلق فى جانبها لايطويها الزمان ولا يسلم هذا الشرف من العار إلا إذا برت بأيمانها ومواثيقها وتركت مصر حرة لأهلها !

يسمع الناس كل يوم أو يشهدون مجرماً اعتدى على متاع أو

سالبا انقض على نصاب فلا يدهشون ولا يعجبون لأن فى الافراد تجد الرذيلة قلوبا كما تجد الفضيلة قلوبا ! بيد أن العالم كافة تأخذه الحيرة من عمل أمة تفخر بالشرف والحضارة والافتتان بجمال الحرية والعدل ثم تخلف وعدها وتحنث فى حلفها ناسية شرفها وتاجها ولواءها متخذة من قوتها سلاحاً ماضيا تقتل به هذه الحرية وهذا العدل !

لقد صرخ ساسة انجلترا صرخات مفزعة سمعها العالم كله حتى الجنين فى بطن أمه أيام هاجمت المانيا بلجيكا معتبرة معاهدة استقلالها التى وقعت عليها الدول فى عام ١٨٣٩ قصاصة من ورق لتقضى ضرورة حربية ! ونحن لو قارنا هذه المعاهدة بالمعاهدات والأيمان والتصريحات الخاصة بمصر لوجدنا اتحاداً فى الجوهر واختلافا بينا فى المعاملة إذ بدّل هؤلاء الساسة الصرخة البلجيكية بطعن مصر فى فؤادها بعد أن وضعت الحرب أوزارها طعنات قاتلة ! فهل لا تصرخون معنا أيها الأحرار صرخة صادقة ضد من صرخوا البارحة للعدل والحرية ثم كانوا اليوم أعداء هذا العدل وسالبي هذه الحرية ؟

ألا إن من واجبكم المقدس أيها الأحرار وحماة الحرية فى كل مكان أن تصرخوا معنا صرخة توقظ العالم كله فقد بلغت روح مصر التراق بعد أن بلغت معاهدات وأقسام وتصريحات انجلترا ازاءها أكثر من الستين صكا وقد حلت مواعيدها فأما البرّ بها وإما أن يحكم العالم بأفلاسها !

أيتها السيدات أيها السادة

إن من شأن مواثيق الساسة والبر بها تحديد شرف الامم ! وهاهو مستر بلنت قد اتهم من سنين خلت أدلاء بلاده وساستها المسئولين باحتقارهم نبالة كلمات العدل والشرف والأنسانيه فما أقساها تهمة وما أسودها صحيفة سطرها التاريخ لأمة !

بماذا يجيب ساسة انجلترا عن هذه التهمة التي تجددت فى هذه الأيام بأبشع الاشكال ؟ وبماذا يدفعون عن أنفسهم وهم الذين أتهموا الألمان وحكامهم وقادتهم إبان الحرب بالهمجية والتجرد من الرحمة وتلويث الشرف حتى لو اقتضته سنة النزال هجوماً ودفاعا بين المتحاربين ؟ أفهل يوجد أمرؤ يبرر الجرائم والفظائع أيام السلم إذا وجد من يبررها أيام الحرب مدعيا أنها وحشية جبرية ؟

لقد أمر محتلو مصر جندهم المستكمل عدد الحرب الحديثة الطراز ليهاجموا المصريين العزل من السلاح فى رائعة النهار وعلى مراءى ومسامع المتمدينين ! فماذا جنى أبناء النيل لتخطف أرواحهم ؟ ألا إن جنايتهم التي سارعت المدنية البريطانية لمعاقبتهم عليها هى مناجاتهم الحرية بالوسائل السلمية !

أواه أيها المتحضرون ! ألا فاذهبوا إلى مصر جدة المدنيات وعروس الكائنات لتروا الأكباد التى مزقها رصاص البريطانيين والأشلاء التى نثرتها على الثرى قذائف المتمدينين ! فوق أرض

أحسنت للعالمين حتى تدركوا عدل المقنين وشرف الحالفين وأنسانية الآدميين ! أولئك الذين بما اتهموا به خصماءهم الالمان وأذاعوه فى كل مكان استطاعوا أن يكسبوا عطف الناس أجمعين !

إذهبوا أيها العادلون إلى بلد رمسيس وقد كال له المديح كيلا بعد حربكم الضروس قادة الجيوش الأنجليزية فى الشرق لتروا كيف فعل هؤلاء القادة أنفسهم بأبنائه ؟ لقد ضيقوا عليهم الخناق لاستردادهم شرفهم الوطنى وهو أقدس ما يكون !

إذهبوا حيا بلدة المدنية الحديثة إلى مهد العلوم . . . إلى مصر الجمال والجلال والآثار والأسحار لتروا من حسنات الانجليز عليها سجن الرجال ونفى الأبطال وفاء بالعهد وبرا بالأيمان ! ولتروا مالم تروه أو تسمعوا به من قبل . . . وحشية متقنة الصنع بل هى شر ما أخرجه للناس ألد الخصام !

اذهبوا أصدقاء استقلال الأوطان وزواد حريتها إلى ربوع مصر لتشهدوا كرمها الحاتمى وخلقها النقى وفخارها الأثرى وجمالها النيلى ولتحكموا بينها وبين خصمها العتى !

اذهبوا إليها لتروا كيف يعيش فيها اخوانكم وأصدقاءكم الغربيون وكيف يستقبلون على الرحب والسعة فى كل مكان ! وكيف اتخذوها وطناً ثانياً وكيف هم مثلنا الانجليز مبغضون !

اقصدوا إليها لتنصفونا فأن المجالس العسكرية البريطانية تحكم

علينا فى وقت السلم أحكاما ما قدر عليها الحلفاء متجمعين إزاء نفر ممن لقبوهم بمجرمى الحرب من ساسة وقادة الألمان! تحكم علينا بمصادرة الأموال والجلد والسجن المؤبد والأعدام لمظاهرتنا الحرية ولتذكير انجلترا بشرفها ولأننا شرفاء !

اذهبوا إلى وادى النيل لتروا فيه الاحكام العرفية باسطة جناحيها على ربوعه منذ ثمانية أعوام لم يؤخذ فيها رأى الأمة لافى تشريع ولا فى ضريبة ولا فى مال ولا فى أى مرفق من مرافقها بل الحكم كل الحكم فى كل أمر من أمورنا لقائد بريطانى هو الحكومة المصرية وأمتها فى شخص والعدل والنظام والقانون فى رأس ! فهل عاملتم أعداءكم الذين خربوا دياركم ورملوا نساءكم ويتموا أطفالكم وبدلوا غناكم تعسا وكادوا ينسفون مدنيتكم مثلما عاملنا الانجليز ؟ وهل بلد كمصر اعتبرت أيام الحرب على الحيدة تعامل بعدها معاملة أشد قسوة وأفظع أثراً من معاملة الاعداء ؟ وهل مناجاة أمة كالأمة المصرية الحرية والاستقلال تعد فى نظر المتمدينين أمثالكم جرما أكبر أثما وأكثر ألماً من جرم الذين كادوا يلقون بالانجليز فى أليم لولا أن لطف بهم علام الغيوب ؟

لقد ظن العالم أجمع أن السلام حل محل الخصام والقانون محل الفوضى والعدل مكان الظلم بعد أن أصلت جحيم الحرب المتقاتلين ناراً وسعيرا مدى أكثر من أربع سنوات كاملات ! ظن العالم أن

جبروت العسكرية وتحكمها فى الامم قد زال بزوال هذه الحرب الجهنمية وانقضى خبره . ولكن هالهم وجوده فى مصر فى أبشع صورة وأسوأ حال ! تحكم لم يذكره التاريخ حتى فى عهود نيرون وبهنزان ومحاكم التفتيش !

إن واجب العسكرية فى كل أمة متحضرة موقوف على العمل للزود عن شرفها خارج بلادها ولصيانة العدل وتوطيد السيادة القومية داخلها إذا اعتدت عليها يد شريرة أو مزق سترهما مسيطر غشوم ! ولكن السياسة البريطانية التي ضيق الألمان عليها الخناق إبان الحرب وكادوا يشدون منها الوثاق رأت النصر الحقيقى فى أن تحمل عسكريتها على المصريين العزل الآمنين بعد أن استفاد المحتلون من غذائهم ومن مالهم وبعد أن حبسوا عقولهم وأهانوا شرفهم وخطفوا أرواح أبنائهم عقاباً لهم على أنكار سيادتهم وسيطرتهم مجاهرين بحريتهم واستقلالهم على مشهد من الخلائق أجمعين !

سيداتى وسادتى

ألستر لويد جورج أن يقارن بين هذه الصحيفة الدموية التى سطرتها السياسة البريطانية فى مصر بعد الحرب وبين تلك الكلمات النبيلة التي فاه بها إبان الحرب وتوجها بوجوب الأذعان للحق والوفاء بالعهد والبر بالقسم واحترام المواثيق الدولية وصيانة الشرف الوطني فى كل مكان ؟

أليس هو القائل فى ٧ ا كتوبر سنة ١٩١٤ : « إن جمع الامم اليوم متضامنة تضامناً تاما فى معاقبة الذين يعتدون على العدل وينكرون حقوق الأمم أو يخفونها أو يهاجمونها سالبين شرفها وكرامتها ووجودها بسلب حريتها واغتصاب استقلالها محتقرين المعاهدات الدولية والتصريحات العلنية التي يجب على الرجال المسئولين فى الحكومات احترامها والدفاع عنها فى كل زمان ومكان ؟ »

أليس هو القائل فى ٢٣ ابريل سنة ١٩١٧ : « لم ترم انجلترا ولا تروم أبداً من استمرار هذه الحرب أن تكون سيدة العالم كما أرادت وتريد ألمانيا ! وأنما أرادت ألا تبقى صامتة بأى حال أمام مساوئ العسكرية الالمانية والوحشية البروسية التي انتهكت بأفظع الاشكال حرمة المبادئ الأزلية للحق والعدل والشرف الدولى باعتدائها على بلجيكا وهى آمنة مطمئنة ! فكان واجباً محتماً على انجلترا إزاء الجرم الألمانى بوصف أنها دولة متمدينة عظيمة أن تدافع بكل قواها وتدفع هذا الاعتداء على الحقوق البشرية المقدسة وعلى المعاهدات الدولية الواجبة الاحترام ! . . »

ألم يقل بأعلى صوته فى ٥ مايو سنة ١٩١٨ لبعض قساوسة الانجليز إبان الحرب :

« إن حكام وقادة الألمان يدعون الله كلما صحت عزيمتهم على ارتكاب منكر أو جريمة لا تغتفر ضد الانسانية بأسرها مرتدين برداء

الصالحين ! فمن هو إلههم هذا؟ ألا إنه ليس إله المؤمنين المخلصين ذلك الذى يحل الحرام ويجيز هتك الفضيلة وإنكار الشرع والخلف فى العهد والحنث فى اليمين بمصادرة المعاهدات والقضاء على الحرية التى هى حق الأمم جميعاً وبسحق العدل بتشويه مبادئه الأبدية ....»

هذه كلمات ذلك السياسى حرفا حرفا قد حفظها التاريخ ! كلمات اعتمد عليها دفاعا عن حقوق الأفراد ضد الغاصبين والهاتكين والمعتدين على الأرواح والأنفس والأموال يوم كان محاميا؛ واعتمد عليها إبان الحرب وهو سياسى ليربح فى الحالتين قضايا الأفراد وقضايا الأمم على السواء ! فلم تناساها اليوم وهو لايزال على رأس الحكومة البريطانية يجمع المؤتمرات ويفصل فى قضايا الأمم ومرافق الكون بأسره ؟ لم تناساها إزاء مصر واستبدلها بالرصاص والقنابل والاعتداء والفظائع وإله الالمان ؟ ! ! وكيف رضى أن تلبس حكومته لباس حكومة الألمان بعد أن برؤ منه إبان الحرب ومزقه وأحرقه على مشهد من العالمين ؟ كيف رضى أن تسمح حكومته للجنود البريطانية بأن يهاجموا المنادين بالحرية فى مصر ؟ كيف قبل رئيس الوزارة الانجليزية أن يسطر التاريخ على حساب حكومته وشرف وطنه هذه الصحيفة التى تبقى أبد الآبدين صحيفة خزى وعار؟ ألم يذكر حادث دنشواى فى عام ١٩٠٦ ؟ ألم يذكر إذ ذاك حركة خواطر المصريين وقلق الأوربيين على العدل فى وادي النيل ؟ ألم يذكر إذعان حكومة بلاده

لصوت مصطفى كامل ؟ ألم يذكر حكمة « سير كمبل بانرمن » الرئيس الاسبق للحكومة البريطانية وقد رأى من واجباته المفروضة عليه إنقاذ شرف بلاده فحتم على لورد كرومر أن يستقيل بعد خمسة وعشرين عاما قضاها فى مصر أميناً على مطامع انجلترا ! كما أوعز للخديو بالعفو عن مساجين دنشواى ؟

هـذا كان عمل ذلك الرئيس الذى لم يسمع داخل بلاده إلا صوتاً واحدا من أصوات الأمة المصرية هو « صوت مصطفى كامل » يحتج على إخطاء المحتلين وقسوتهم وظلمهم فى حادثة دنشواى التى لا تعد شيئاً مذكورا فى جانب آلاف من الحوادث الأكثر فظاعة والتى وقعت فى بلادنا بعد الهدنة !

لماذا اعتبر مستر لويد جورج وزملاؤه الأمة المصرية المتشوقة للحرية عدوة لانجلترا التى ما بلغت إلى عظمتها إلا بفضل هذه الحرية؟ ولماذا اعتبر هـذا المتشرع الشهير والسياسى الكبير مصر وهى الدائنة عدوة لانجلترا المدينة لها بعهودها وأقسامها وشرفها ؟ وكيف وجد جنابه أن الجرى وراء أطماع بعض عشرات البريطانيين المستعمرين أنفع لبريطانيا وعظمتها وشرفها من توثيق عرى المحبة بين الامة البريطانية وبين الامة المصرية التواقة إلى حريتها التى سلبها أولئك المستعمرون الذين تعاونوا على الأثم والعدوان ؟ ولماذا لم لم تتساءل حكومة مستر لويد جورج عند ما وضعت هـذه الخطة

المثيرة للعواطف الانسانية كيف يستطيع أى انجليزى العيش فى مصر ومعاملة بنيها !

لقد وقف مستر لويد جورج فى مؤتمر « كان » أبان هذه الفظائع التى ارتكبت باسم حكومته فى مصر وكأنه شعر بثقل التهمة الملقاة على عاتقه أمام المتمدينين فقال : « ولو أن الحكومة الروسية الحاضرة لها مبادئ لانرضاها مبادئ البولشفية التى دخلت مصر والهند... الخ » قال هذا القول ليصرف نظر الكارهين لمبادئ البولشفية عما تجريه انجلترا فى مصر التى اتهمها باعتناق مبادئ البولشفية : ولكن الساسة العارفين مصر ودينها وشرعها ونظامها ومركزها الاجتماعى قد سخروا من هذا القول لأنه لا يوجد بلد فى العالم يحترم النظام والملكية والجهود الفردية مثل الأمة المصرية التى لخمسة وتسعين فى المائة من أبنائها دين هو عدو البلشفية فى نظامه ومبادئه وأوامره : إن افتراء هذا السياسي على مصر بأن مبادئ البلشفية قد دخلتها إبان الجنايات التى يرتكبها المحتلون فيها ليس مثله إلا كمثل شركاء اللصوص الواقفين خارج دار وقد تآمروا وأخوانهم على سلبها ليدقوا : الطبول وقت ارتكاب الجريمة حتى يستتروا تحت أصواتها أصوات أصحاب الدار المسلوبة أولئك الذين أثخنهم المعتدون الغاصبون طعنا بالخناجر ورميا بالرصاص حتى لا يسمع أنينهم أحد فى العالمين : ولكن بالرغم من حذق جنابه ودهائه قد سمع أنين مصر كل العالم وجرت أقلام حرة فى كل

مكان تسفه هذا العمل الوحشى وتؤيد حق الامة المصرية فى الحرية والاستقلال !

أيوجد أيها السادة مصرى واحد بعد استخفاف الانجليز بالارواح واعتدائهم على الحرية هـذا الاعتداء يحمل فى قلبه ذرة من الحب لانجلترا ؟ كلا . فكل مصرى مؤمن مفتتن بحب الوطن كريم النفس صادق النزعة لا يستطيع قلبه أن يحبها ما دام حكامها لا يحترمون حق مصر فى الحرية والاستقلال متخذين شعارهم الوطنى إزاءها التحايل بكل باطل لحكمها رغم أنفها !

أيتها السيدات أيها السادة

لقد برهن المصريون فى بحر هذه الثلاث السنوات التى أعقبت الحرب أنهم أمة لا ترضى الجنة بالمذلة مفضلة الموت على أن تعيش فى بلادها محتلة معتلة ! برهنوا أن نفوسهم وحواسهم وكل مشاعرهم متجهة إلى قبلة الحرية وأنهم فى مستوى أعرق الأمم مدنية ! برهنوا بعد أتيان السلطات العسكرية البريطانية هذه المنكرات أنهم شعب حى شاعر بوجوده ! فلقد احتج أمراؤنا وعلماؤنا وأساتذتنا وقضاتنا ومحامونا وأطباؤنا ومهندسونا وتجارنا وطلابنا وزراعنا وكل من فى مصر نا على هذه الفظائع وأضرب الكل حتى موظفو الحكومة عن العمل فوقف دولاب الحركة فى كل مكان !

ولقد كان على رأس المحتجين المحرضين على مقاطعة الانجليز

أينما كانوا ومعاداتهم من أعماق القلوب سيدات مصر وعلى رأسهن السيدة النبيلة والزعيمة المجيدة هدى شعراوى باشا . أولئك اللواتى قلدن سيدات الغرب فى الدفاع عن محراب الوطنية والحرية ! فقد نشرن ندآءت مؤثرة ودافعن عن بلادهن دفاعاً مجيدا !

هذه الحركة المباركة والنزعة الوثابة والغيرة الشديدة على حرية الامة واستقلال البلاد قد وجدت من أنفس الأوربيين القاطنين مصر وعلى الأخص الفرنسيين والايطاليين ارتياحاً كبيرا وعطفا صادقا وأطرى الكثيرون منهم السيدات لنزعاتهن النبيلة ولأنهن بهذه العاطفة الوطنية المحترمة قد برهن أن وطنية الشعب المصرى بأسره سليمة وما هو إلا مجموعة مؤلفة من آبائهن واخوتهن وبعولتهن وأبنائهن !

إنى لا أنكر عليكم أيها السادة أن السيدة المصرية كانت فى كل أطوار حياتها وطنية فخوراً بأن أقدم ملكة قدمها التاريخ للعالم إنما كانت مصرية فرعونية . . . . بيد أن وطنيتها كانت متدرجة مع الاخلاق الوطنية والعادات القومية التى ما كانت تجيز لها أن تنزل الى الميدان لبث الدعوة وحض الناس على الصبر والثبات لاسترداد الحق المسلوب فى الحرية والاستقلال. بل كن يكتفين ببثها فى بيوتهن ومن وراء ستار ! ولكن تزايد شوقهن لهذه الحرية وتعلق قلوبهن بها وغرامهن بمحياها وكبير معانيها من جهة وما لقيه رجالهن وأكبادهن فى الثورة التى أعقبت هدنة الحرب الاوربية من جهة أخرى حملاهن على

الظهور مظهر الرجال فى كل مكان فأسسن الجماعات الناهضة وقدمن أموالهن عن سخاء وجهرن بأصواتهن وتظاهرن فى الميادين العامة بأنفسهن وخطبن فى المجامع وشيعن كل رجل نفى من مصر بدعوات حنت لها السماء والأرض ورددتها الملائكة وتقبلها الخالق الباطش بالظالمين بقبول حسن . . .وفى الجملة فقد قامت السيدة المصرية بأشرف دور وكتبت أمجد صحيفة فى تاريخ الحركة الوطنية الحديثة فى مصر. هذه الصحيفة الخالدة التى تنعش على الدوام قراءتها عشاق السير الوطنية !

فهذه الكفاءة النادرة والأهلية التامة التي ظهرت بها السيدة المصرية مظهر أخيها المصرى ليست إلا برهانا ملموسا لا يقبل النقض البريطانى ولا الأدعاء الانجليزى ولا التبجح الاستعمارى على أن الأمة المصرية من أميرها الى راعى غنمها أهل للحرية الكاملة والاستقلال التام

لقد رأت الامة المصرية واجبا عليها أن تقرن احتجاجها الأدبى باحتجاج مادى يكون له أثر فعال مباشر فاتحدت جميعها بلا استثناء على ثلاثة أمور جوهرية. مقاطعة التجارة الانجليزية . وسحب النقود الوطنية من المصارف الاجنبية وإيداعها المصارف الوطنية التى أسست حديثا . وعدم تاليف الوزارة ! ولقد سعى الانجليز ذات اليمين وذات الشمال لتأليف وزارة فلم ينجحوا حتي اليوم ولعلكم تتساءلون عن سبب فشلهم إلى هذا الحد ! ذلك أنهم لم يجدوا حتي

الساعة من يخالف لرأى العام الذى أصبح فى مصر قويا بفضل تمكن حب الحرية من أنفس المصريين جميعا ! فالرأى العام الذى يحرك حكوماتكم هنا هو الرأى العام الذى يذعن له اليوم كل مصرى ومصرية ! والذى لا بد أن يذعن له الشرف البريطانى عاجلا أو آجلا لانقاذ كيانه أمام ارادة قوية متحدة كهذه الارادة !

إلا إن صوت الشعب المتحد من صوت الله فلتداوم مصر على اتحادها جهيرة الصوت ليكون الله معها ويكون النصر حليفها !

لقد ادعت الصحف الانجليزية على أن ثورة مصر فى سنة ١٩١٩ لاسترداد الحرية أنها نزعة المتطرفين وأن فى مصر معتدلين راضين بما هو أقل من الاستقلال لأن سياستهم سياسة التدرج . قابلين مراقبة انجلترا لمرافق بلادهم مع بقاء الاحتلال بضع سنين حتى تنضج الأمة المصرية نضوجا صالحا للحرية الأوربية والنظم الدستورية الكاملة ! فلما سافر الى انجلترا وفد رسمى برئاسة عدلى باشا تفاءلت تلك الصحف لاعتقادها أن أعضاءه من أولئك الذين أسمتهم معتدلين. بيد أنها لزمت الصمت التام لما رأت هذا الوفد قد رد على مشروع لورد كرزن رداً سياسيا مقنعا رافضاً قبوله كل الرفض ذلك لأنها لم تر للمعتدلين أثراً وأنها أمام أمة شجاعة غيورة على حريتها مدركة أن أصل اعتداء انجلترا هو احتلالها العسكرى لبلادها ولا يمكن إزالة هذه العداوة إلا بالجلاء ...

إن مصر بأسرها تفقه معنى الحرية وتعلم أنها عرضها وشرفها وقد كانت فى التاريخ أول أمة علمت العالم التقنين ومختلف العلوم والفنون بل كانت أول أمة أوجدت المجالس النيابية فى بلادها والنظم الدستورية فى أحكامها !

نعم . لقد واجه الانجليز قاطبة حقيقة عملية لا ينفع الكذب معها ولا الافتراء ولا التحايل ولا السعى فى شراء الذمم والضمائر فأنما الأمة التى يحكمها الأجنبى لا يكون مثلها إلا كمثل السائمة التى مصيرها الذبح على كل حال !

أجل أيها الاحرار فأن نصراء حزب الاستعمار الانجليزى قد اعتمدوا فى كل ما أذاعوه على الكذب والأفتراء ليبعدوا العالم عنا أو لينفروه منا كما اعتمدوا فى داخل بلادنا على الشدة والعسف ليطفئوا من نفوسنا نور الله وأبى الله إلا أن يتم نوره !

حاولوا أن يلقبونا بالمتطرفين ففشلوا واليوم برزوا فى الميدان معلنين للعالم كله — بعد أقسامهم المتكررة بتاجهم وشرفهم أنهم منجلون — بقاءهم فى مصر لحماية خطوط مواصلاتهم كأن مصر كانت ملكا لهم أو متاعا لآبائهم من قبل نتازعهم فيها حقهم ناسين أنهم فيها غرباء خصماء غرماء ؛ إنهم يطلقون علينا الرصاص ويخطفون أرواحنا لنقدم لهم ثمن صيانتها قبول ما حتموه علينا من الاعتراف بشرعية مركزهم فى مصر ظانين أننا جبناء أذلاء نود صيانة الحياة

مع العار ولا نقدمها ثمنا للشرف والفخار ! فنشاوا كذلك ورأوا قلوباً كالصخر أو أشد صلابة تنزل غير هيابة إلى سوق بيع المهج لتشترى بها وطناً حراً مستقلا علىَّ الذرا سامى المقام

قال لنا مصطفى كامل :

« نحن مسلوبون والانجليز هم السالبون ونحن طلاب حق مقدس وهم المغتصبون لهذا الحق ولاسبيل للاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا

أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والانجليز على أساس تضحية الشرف البريطانى وتضحية استقلال مصر أي خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الانجليز لشرفهم ووعودهم وعهودهم . فأنا يوجهون إلى الامتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقا باطلا . وأى احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة ؟ أننا نشكر كل انسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها ولكننا لا نقيد برأى أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة بل يجب أن نكون على الدوام خدام العقيدة الصحيحة السليمة خدام العقيدة الوطنية »

هذه وصية مصطفى كامل لنا وهى سياسة الأمة المصرية الآن القائمة على الشرف والحق والصراحة والتى تحتم علينا ألا نقبل الاتفاق مع انجلترا إلا على أساس الاستقلال التام لبلادنا المحدودة بحدودها

قبل الاحتلال وهذا الاستقلال يستدعى بطبيعته ألا يكون فى بلادنا جندى من جنود الامبراطورية الانجليزية محتل لاى شبر منها وألا يرتب عليها لانجلترا أى حق ولا أية سيادة !

لقد نادى لورد ملنر فى التقرير الذى قدمه باسم لجنته للحكومة الانجليزية ! « أن موقف مصر إزاء انجلترا يحتم العمل من الجهتين لتوثيق عرى المحبة بين الأمتين » وقال لورد كرزن نفس هذا المعنى باسم الحكومة الانجليزية .. ونحن كذلك قد أعلنا مرارا وتكرارا للعالم أجمع ان مبدأنا هو على الدوام « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » وأننا لا نود إلا أن نعيش مع جميع الأمم فى اسلام لا نعادى واحدة منهن ولا نميز واحدة على الأخرى بحكم مركزنا العالمى وبحكم تقاليدنا .

اشترطنا للأتفاق معها أن تعترف رسميا باستقلالنا التام . وتجلى جنودها عن البلاد وتسحب حمايتها التى أعلنتها من تلقاء نفسها والتى لا حاجة لنا بها ! اشترطنا ذلك والعالم كله يرى الحق فى جانبنا إذا نحن سلكنا هذه الخطة قبل أية مخابرة فى أى اتفاق لأن انجلترا بعد أن وعدت مرارا بلسان ساستها وأقسمت بتاجها ثم عاملتنا معاملة الصيادين للوحوش لا يطلب منا أن نثق بها إلا إذا قدمت برهانا على أخلاصها وهو اعترافها بمطالبنا ؟

قدمت لنا الحكومة الانجليزية عقدا بعد مخابرات طال أمدها لتوطيد المحبة بين الأمتين كما تمنى ساستها فما كان إلا شبيهاً بالعقود التي تقدم لزنوج العالم المجهول ناسية أن لنا على الأقل قضاة حاملين لأكبر الشهادات الفرنسية جلسوا فى جوار القضاة الأوربيين فى المحاكم المختلطة نصف قرن من الزمان وأنهم لا يقلون فى التشريع درجة عن أى قاض انجليزى فى انجلترا ! قدمت لنا عقدا كانت أولى مواده اعترافها باستقلالنا وكانت بقية المواد وقفا على احتلالها مصر احتلالا أبديا بل وضمها إليها ضما حقيرا ! رفضنا هذا الذى لا نسميه إلا هذيانا سياسيا وعزمنا على الاستمرار فى جهادنا الشرعى دون الاعتراف بأي مركز قانونى لانجلترا فى بلادنا والمضى فى العمل لتحقيق حريتنا ولو طال الزمان !

صفق العالم كله لهذا الرفض ولهذا العزم وتساءل الاحرار فى كل مكان كيف يصف مستر لويد جورج مخالفيه داخل بلاده بضعف المدارك بينما يوافق عقله القوى ورأسه الكبير على معاملة مصر معاملة جائرة وتمزيق العهود الدولية والمواثيق الرسمية وتدنيس العدل وإنكار الشرف ! هل من العدل أن تتعادل الحرية المقدسة والرق المرذول فى كفتى ميزان ! وهل قرر علماء القانون الدولى أن صحة الاستقلال مع الاحتلال الأبدى جائزة ؟ وإذا كانت الحالة التى تحتم انجلترا على مصر قبولها هى عين الحالة الحاضرة بل وأسوأمنها فعلام

هذه الضجة وعلام المفاوضة ؟ ألا إن هذا تحايل بيّنٌ فى مواجهة العالم كله ! هل من الحكمة والأنصاف أن السلاح الذى صنعته معامل انجلترا لمحاربة الألمان تجرده فى وجوه دائنيها لتعيش بلا شرف ؟ وهل من أصالة الرأي أن يهاجم قاده انجلترا مصر التي لا يزال إطراؤها للمعاونة التي قدمتها لهم أثناء الحرب بالرغم منها يرن فى آذان العالم كله؟ وهل يمكن أن أكون صديقك وعدوك فى آن ؟ وهل يمكن أن تكون الفظائع والآثام التي تمجها الشرائع ولا يستقيم بها العمران عوامل فعالة لتقريب الشعوب بعضها من بعض ؟ كلا ألف مرة كلا. فالشرف وحده ! شرف انجلترا هو الذى يرفعها ويذكرها ويربطها بالأمم برباط الود والصداقة ويجعل ساستها على الرؤوس محترمى الكلمة !

فليخسأ الأذعان لغير الحق ولتذهب إلى الجحيم أمم تقبل الذل والعار فأن ذمتنا وحياتنا وقف على حريتنا ! هذه الذمة التى تكبر شعورا وتتوج شرفا وتسمو قدرا كلما نما وتأصل فى نفوسنا الحقد على خصمنا السالب نعمتنا الهادم استقلالنا المدنس وجودنا !

أنه لمستحيل على لص أن يظفر بقنية يحاول سلبها وصاحبها يقظ ! ومستحيل على خصمائنا الالداء أن يميتوا مصرنا ونحن حراسها بل ستحيا بالرغم منهم حياة طيبة باتحادنا وشممنا وإبائنا وجدنا وستكون على الدوام كما كانت من قبل مقبرة الأمم الطاغية !

أيتها السيدات أيها السادة

أنى أسمع على بعد المزار أنين بلادى وكنت أود من سويداً قلبي أن أحدثكم فى ألمها وبلواها أياما طوالا لأن صحيفة انجلترا فى مصر ليست من الصحف التي تتلى فى ساعة من الزمان ! أو التى تطوي بقذيفة باقية من محاربة الألمان ! أو يتحول النظر عنها لوعيد السياسة أو تهديد القادة أو بأى فعل كائنا ما كان ! نعم كنت أود أن أشرح لكم ما سلبته انجلترا من بلادنا وما عطلته من مواهبنا فى الاربعين السنة الماضية ولكن وقتكم الثمين لا يسمح الا بهذا راجيا أن تكون قلوبكم معنا وأقلامكم فى خدمة الحق والشرف والعدل ! آملا كل الأمل أن يجمعنا المستقبل القريب فى أفراح حرية النيل من أقصاه الى أقصاه ليجرى بين أيدى أبنائه وليسمو كما كان فى التاريخ ساميا على أقرانه . . . هذا يوم نقدم لكم فيه اعترافنا بجهادكم معنا ومعاونتكم لنا على بلوغ حريتنا واستقلالنا أدام الله الود وعارفيه والاستقلال ومؤيديه والحرية وعشاقها وأدامكم نصراء لمصر وبنيها وصعيدها وسودانها وملحقاتها ! . . . . فلتحى الحرية ولتحى فرنسا !

فصاحت الاصوات من كل مكان . . لتحى مصر حرة مستقلة عزيزة كبيرة

وأما الرسالة التى قدمها وطنينا لجميع الساسة ولأعضاء مؤتمر لوزان فهذا تعريبها :

المقدمة

« دعانى الكثيرون من أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي وفى مقدمتهم الرئيس الجليل مسيو لويس مارتان لمناسبة التئام مؤتمر لوزان واعتماداً على الخمسة والثلاثين عاما التى قضيتها فى خدمة وطنى العزيز لأشرح لهم قضية وادي النيل من جميع الوجوه وعلى الأخص من الوجهة الدولية . ولقد لبيت بكل ارتياح هذه الدعوة المشكورة التى قامت على الثقة بمصر وبأبنائها من قبل نواب الشعب الفرنسى النبيل والتي ساقت إلينا دليلا جديدا على أن الكنانة تجد على الدوام فى فرنسا أصدقاء أوفياء

وأننا إزاء هذا العطف على قضيتنا نزلف اليكم أيها السادة من سويداء قلوبنا باسم الأمة المصرية عامة وباسم الحزب الوطني المصرى خاصة عظيم شكرنا وجزيل ثنائنا ونعلن بكل جوارحنا صادق اعترافنا بالجميل لجميع أحباء مصر فى العالمين

***

« إنه على أثر الحرب الأوربية الأخيرة وما جرته على العالم من بلايا وعلى الانسانيه من رزايا دون تمييز بين الاجناس تساءل العالم بأسره

وقد أذن مؤذن الهدنة . عما يكون فى وسع رجال الحكومات عمله لتوطيد السلام الكونى على دعائم قوية ثابتة !

وما مرت فترة قصيرة حتى وافق العالم قاطبة على تأليف «عصبة الأمم» وعلى المبادئ التي أعلنها للملأ أساطين السياسة فى العالم المتحضر . هذه المبادئ التى من شأنها وضع حد للاعتداآت الجنائية وتمكين الأمم من الاستمتاع بالسلام فى ظل العدل وتصرف كل شعب فى أموره الخاصة وتملكه سيادته القومية كاملة

بيد أن حبل الرجاء فى هذه العصبة ما لبث أن انقطع للدواعى الآتية :

أولا — لأن جميع الامم لم تمثل فيها فهى اذاً عصبة تحكمية أقامها بعض الأمم دون البعض الاخر

ثانياً — لأنها أقرت حتى هذه الساعة عدة أمور ضد أمم كثيرة فى غيابها دون أن تسمح لها بالحضور أمامها لتسمع دفاعها عن حقوقها وعن شرفها الوطنى كما تحتم مبادئ الحق والعدل

ثالثاً — لأنها لا تملك قوة تنفذ بها أحكامها وقررها ملزمة الأمم الطاغية بالكف عن اعتدائها على الأمم الهادئة !

رابعاً — لأن مزاحمة المجالس العالية ومجالس السفراء والمؤتمرات الدولية لأعمالها لا يجعل لها فى الغالب أثرا فعالا ولا نفوذاً منتجا . اللهم إلا ما تهديه بين آن وآن من المنافع الوفيرة للأمم الكبيرة فى

بلاد الأمم الصغيرة !

وليس ثمة من سبب لهذه الفوضى السياسية الكونية إلا سوء الطوية والطمع الأشعبي لدى بعض الدول وبالأخص لدى انجلترا .

ألا إن الحرب الاوربية الأخيرة ما أنتهت إلا بشق الأنفس وقد خلفتها حربان ضروسان ساحقتان هما الحرب الاقتصادية والحرب الاستعمارية . هاتان الحربان سيجران العالم لا محالة — عاجلا أو آجلا — إلى الشقاء والفاقة . إذ النكبات الانسانية تتجدد آلامها وأحزانها بتجدد الحروب الدموية . حروب الهلاك والدمار ! نعم تتجدد الحروب اذ استمر الساسة ومرشدو الامم فى ضلال السياسة القديم معتمدين على الأنانية الدولية والشره الاستعمارى ولوقى من جرائها العالم كله!

ألم نر اليوم أن جميع الساسة قد نسوا الغوائل التى سببتها الحرب الأخيرة وأنه بالرغم مما يسمونه معاهدات أو اتفاقات فأن جميع الدول بلا استثناء تحارب بعضها بعضا بجميع وسائل المكر والختل وقد سخرت كلها من الأنسانية ومن مبادىء الانصاف عاملة بمبدأ « ومن بعدى الطوفان » ؟

أليس فى هذه الخطط الملموسة برهان على تأصل ذلك الداء العضال فى أنفس الساسة وقادة الشعوب . داء السياسة الدولية القديمة . سياسة الاستعمار والازراء بحقوق الامم ؟

وماذا جنت الانسانية من المؤتمرات والالتئامات الدولية ؟ ألا إنها لم تجن الا الفشل بما قدمته للعالم من معاهدات عقيمة مستحيلة التنفيذ !

ألم يكن وضع شرائط لا تنفذ إلا بالقوة دون الحصول على عوامل هذه القوة أو الخوف من الالتجاء اليها ـ فشلا تاماً ماوساً ؟

ان المثل جلىٌّ فى معاهدة سيفر تلك التى حتمت على الدولة العثمانية أن تسلم الدول المنصورة كيانها بالنزول عن متملكاتها و بلادها لتدفن حية ويمحى كيانها السياسى من الوجود !

ان الساسة الذين اعتقدوا فى أنفسهم القدرة على كل أمر حتموا على الدولة العثمانية قبول هذه المعاهدة ظانين أنهم قد يقيمون بها منار العدل ويوطدون دعائم السكينة بالحكم على شعب كريم شجاع كالشعب العثمانى بالاعدام بيد أنهم ما لبثوا أن سمعوا صوت هذا الشعب النبيل يدوى فى أرجاء العالم ساخراً من إرادتهم التى لم تستطع تحتيم مثل هذه المعاهدة على أمم أخرى ألحقت ببلادهم إبان الحرب الخسائر الجسيمة !

قبل السلطانى العثمانى تلك المعاهدة بناء على نصائح المستضعفين بيد أن الأمة العثمانية الكبيرة أنكرتها كل الانكار وثارت عليها حتى لا تموت حقيرة ذليلة وهى التى كتب آباؤها صحف المجد والفخر بأعمالهم المجيدة !

لما رأت فرنسا وايطاليا ألاَّ مناص لهما أمام ارادة الشعب العثمانى المقدام من الانفاق مع حكومة أنقرة اتفقتا معها وكفتا عن الاعتداء والنضال ؛ عدا انجلترا التى ظنت أنها تجد فى اليونان القوة القاهرة للدولة العثمانية والعدة القادرة على إعدامها !

ولقد أخلف الله ظنها فلم تقع تلك الكارثة اذ أن قدرته عز وجل لم تشأ أن يصاب رأس الاسلام بالفناء تحقيقاً لجشع بعض الدول وعسفها

قد ثارت الأمة العثمانية بسبب هذه المعاهدة الجائرة

أولا ـ على سلطانها لرضائه بحكم الأعدام على الدولة والملة

ثانياً ـ على اليونان التي دفعت بها أطماعها ونصائح حكومة لويد جورج المغررة لتقضى على الدولة العلية متناسية عبر التاريخ

ثالثاً ـ على انجلترا التي تجلى حقدها علي الأسلام عامة وعلي الدولة العثمانية خاصة فى مظهره الحقيقى قبل الحرب وإبانها وبعدها !

هذه الأمة العثمانية التي تغلبت فى ماضي الأيام علي كوارث الدهر قد برهنت مرة أخرى بعد أن جردها الحلفاء من كل قوة أنها لا تزال فتياً وفيها من خميرة العزة والقوة ما استطاعت أن تسترد به حريتها واستقلالها ! هذه الأمة تعرض اليوم برأس مرفوع وصوت مسموع مطالبها فى مؤتمر لوزان وهى لا بد أن تحققها

هذا ولا يمكن لاى سياسى مسئول فى العالم أن ينكر أن المسألة لمصرية من الوجهة الدولية جزء لا يتجزأ من المسألة الشرقية . إذ

أن نظرة صادقة إلى معاهدة لوندرة فى عام ١٨٤٠ الخاصة باستقلال مصر الذاتى . وإلى فرمانى السلطان عام ١٨٤١ المحددين لهذا الاستقلال . وإلى عقد امتياز شركة قناة السويس فى عام ١٨٥٦ وإلى الاتفاقات الدولية الخاصة بانشاء المحاكم المختلطة وصندوق الدين العمومى والمراقبة الثنائية فى عام ١٨٧٦ وإلى عزل الخديو اسماعيل ابراهيم باشا فى عام ١٨٧٩ . وإلى قانون التصفية فى عام ١٨٨٠ وإلى اتفاق طرابيا فى عام ١٨٨٢ . وإلى اتفاق لوندرة الخاص بتوزيع الميزانية المصرية فى عام ١٨٨٥ . وإلى معاهدة الاستانة الخاصة بحيدة قناة السويس وحماية المرور فيها فى عام ١٨٨٨ — وفى الجملة فان نظرة إلى جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية الخاصة بمصر وسودانها وقد صادقت عليها عدة دول — تدل دلالة صريحة على أن قضيتنا السياسية قضية دولية ذات أهمية خطيرة . .

لقد أعلن إلى الملأ كله ممثلو جميع الدول المشتركة فى مؤتمر لوزان الخالى أنهم لا يعملون فيه إلا لغاية واحدة هى توطيد دعائم السلام فى الشرق الأدنى على أساس العدل حتى يكون سلاماً دائماً وثيق العرى . وإنا إزاء هذا الأعلان نعلن نحن كذلك من جهتنا لهؤلاء الساسة ولجميع المنصفين أن مصر تنظر إلى عمل هذا المؤتمر بعين ملؤها اليقظة آملة ألا تكون نتيجته الظلم والاجحاف اللذين تجليا بكل وضوح فى جميع المعاهدات التى أخرجتها للناس تلك

المؤتمرات التى عقدت بعد الهدنة والتى لا نسميها إلا مؤامرات لأن سداها الشر ده ولحمتها الظلم فى كل أمر خص وادى النيل . . .

نعم هى تلك المؤتمرات التى خولت انجلترا حماية مصر دون أن يحضرها ممثلو مصر الأمر الذى يعده القانون الدولى افتئاتاً على الحقوق الشرعية وعملا باطلا من كل وجه . لأن الحماية لا يمكن ضربها على أية أمة إلا إذا قبلتها مختارة ومصر لم تقبل ولن تقبل أية حماية !

اننا لأخبر العالم بمركز بلادنا الدولى ومزاياها الكونية فهى فضلا عن كونها مرتكزة على بحرين تجاريين حربيين من أهم بحور العالم — هما البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط — فأنها كذلك فى ملتقى الثلاث القرات المؤلفة للعالم القديم قارات أسيا وأفريقيا وأوربا ولها الأهمية الممتازة فى العالم لتملكها قناة السويس !

نعم . هى مصر المشرفة على الأمكنة المقدسة ومفتاح سوريا وبيت المقدس ومصدر كنوز أفريقيا الوسطى وباب الشرق الأقصى ومركز الطريق التجارى العام بين الشرق والغرب . . وما مميزياتها هذه الا أكبر رمز بين جميع الرموز الدولية لذلك كانت مسألتها من أخطر المسائل العالمية »

المسئلة المصرية .

يجب على قادة السياسة الكونية — لكى يدركوا المسألة المصرية — أن يرجعوا الى تاريخ القرن الفائت ويلموا بحوادثه حتى يتبينوا الحل

الفعال لهذه المسألة الخطيرة .

ارتقى محمد على الأول عرش مصر فى سنة ١٨٠٥ بأرادة الامة المصرية تلك الأرادة التى أقرها سلطان الدولة العثمانية. ارتقاه والانواء محيطة به من كل جانب والفوضى ضاربة أطنابها فى أنحاء وادى النيل فهيأ منه عروس الشرق كله واستطاع بهمته الماضية وبجده المتواصل وبوطنية المصريين واستعدادهم وبمعاونة فرنسا أن يبدل شقاء مصر سعادة وضعفها قوة وخمولها حركة وقدمها للعالم فى ثوب الفتوة والعظمة والحضارة اللائقة بها حربيه زارعة عالمة صانعة تاجرة !

قام ذلك المصلح الكبير مدى أربعين عاماً بأصلاحات جمة وأعمال جليلة وتمكن من طرد الجنود الانجليزية التى احتلت رشيد وأبى قير فى ١٨٠٧ كما تمكن من الانتصار على الوهابيين فى عام ١٨١٨ ومن نشر السكينة فى أرجاء السودان فى عام ١٨٢٣ ومن الانتصار على اليونان بين عامى ١٨٢٦ — ١٨٢٩

أتى محمد على من الأعمال والانتصارات ما جعل العالم كله يتحدث بنهضة مصر ورقيها وتسابق الكتاب الى تدوين تلك الحسنات لا سيما كتاب الفرنسيين أمثال بورجيه وشامبليون ومونيه ورانكور وديتراف وكلوت . وجريجيه وغيرهم

اتسعت بسبب الدسائس السياسية الأجنبية مسافة الخلف بين محمد على ومتبوعه الأعظم سلطان آل عثمان فاشتعلت نار الحرب

مرتين بين مصر والدولة العثمانية. المرة الأولى فى سنة ١٨٣٢ والمرة الثانية فى سنة ١٨٣٩ وانتهت كل مرة بانتصار الجيوش المصرية.

دخلت المسألة المصرية بعد النصر الثانى فى دورها الدولى بتدخل الدول بين التابع والمتبوع وكانت انجلترا المحركة الأولى لهذه الدولية والعاملة بكل ما فى قدرتها لحرمان مصر ثمار انتصارها

اتفقت انجلترا والنمسا والروسيا والبروسيا فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ على أن تكون مصر ولاية عثمانية ممتازة مستقلة استقلالا داخلياً هى وسودانها وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة فيما بعد. صدر كذلك بناء على اتفاق الدول هذا فرمانان سلطانيان الاول فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ والثانى فى أول يونيه سنة ١٨٤١

وجدت مصر السياسية الحديثة منذ ذلك التاريخ اذ جددت معاهدة لوندرة وفرمانات السلطان حالاتها السياسية والحكومية والادارية. وجعلت لها من الوجهة الدولية حكومة مستقلة استقلالا داخلياً كما جعل حكمها وراثياً فى محمد على وذريته من بعده سواء أكان ذلك من الوجهة الشرعية أم من الوجهة العملية

ومن ذلك الحين خطت مصر عدا ما قام به محمد على خطوات واسعة فى سبيل الحضارة فشقت قناة السويس بين البحر الابيض المتوسط وبين البحر الاحمر كما شقت عدة أقنية عذبة فى داخل البلاد لرى الأراضي الزراعية ومدت السكك الحديدية وأسلاك

التلغراف بين مختلف المدن وبنت القناطر وأنشئت المدارس والمعامل وبعثت البعوث العلمية الى جامعات أوربا . وفى الجملة اقتفت مصر أثر النظم الأوربية بأسمى معانيها وكانت فى إدارتها المثل الأعلى لجميع بلاد الشرق كما قال الخديو إسماعيل : « إن مصر فى نظامها وجمالها ليست إلا بلداً أوربياً » . وعلى الأخص بعد أن شكلت فيها المحاكم المختلطة فى عام ١٨٧٦

حصلت مصر عدا استقلالها الداخلى هذا على عدة امتيازات خولتها أياها الفرمانات السلطانية الصادرة فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ و ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ و ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ وأول يوليه سنة ١٨٧٥ و ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ و ٢٧ مارس سنة ١٨٩٢

تلك الفرمانات التي سمحت لحكومة الخديو بأن تعقد معاهدات تجارية وتقترض قروضاً مالية خارجية وأن تسن ماتشاء من القوانين والنظم الداخلية حسبما يوافق مزاج الامة دون تدخل الدولة العثمانية ذات السيادة الشرعية

عملت مصر سيدة فى داخلها متصرفة فى شؤونها القانونية والعلمية والادارية والمالية دون تدخل أية سلطة أجنبية حتى إذا ما تعذر عليها دفع بعض أرباح الديون الخارجية فى السنين الأخيرة من حكم الخديو اسماعيل وظهرت مرتبكة فى ماليتها تدخلت فى أمورها الداخلية كل من انجلترا وفرنسا بوصف أنهما أكبر الدول الدائنة لها ثم طلبتا

على رأس بقية الدول ـ بعد عدة اجراآت دولية قبلتها مصر ـ عزل الخديو اسماعيل باشا فعزله السلطان وخلفه ابنه الأكبر الخديو محمد توفيق باشا وصدر قانون التصفية الذى صادقت عليه مصر والدول الدائنة بعد أن وضعته اللجنة الدولية العليا فى سنة ١٨٨٠

طاب وقتئذ الحزب الوطنى المصرى من الخديو أن ينشئ للبلاد دستوراً حتى لاتقع فى الفوضى ولتشرف الأمة على إدارة مرافقها كجميع الأمم المتحضرة

أجاب الخديو زعماء مصر إلى ما طلبوا وافتتح البرلمان المصرى فى يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١

قدم ذلك البرلمان للعالم مثلا حيا على نضوج الفكر المصرى بأصداره عدة قوانين نافعة مثمرة وبلغ بنهضته التشريعية إلى مكان سام بين برلمانات العالم وكان الرجاء قويا فى بلوغ مصر ببرلمانها إلى المرتبة التي تستوي وتاريخها المدنى القديم. لولا أن السياسة الانجليزية التى يؤذيها تقدم مصر دست دسائسها فى كل مكان بينما كانت صحافتها تطرى البرلمان وزعماء مصر إطراء كان يخيل وقتئذ لقارئه أن انجلترا أصدق الدول حباً لوادى النيل وأشدهن ولاء لأبنائه وأكبرهن إعجابا بنهضته وتقدمه فى سبيل المدنية بكل مراقيها ! !

كان من أثر هذه الدسائس أن ساد الشقاق بين السلطان والخديو من جهة وبين الاحزاب المصرية وأمير البلاد من جهة ثانية وبين

الزعماء المختلفي الأصول فى الجنسية من جهة ثالثة ! نجحت انجلترا بتدابيرها الشيطانية فى إشعال لهيب الثورة العرابية فى البلاد. تلك الثورة التي لا أرتاب فى أنكم جميعاً ملمون بها كل الالمام وعلى الأخص بعد أن قرأتم كتاب مدام جوليت آدم الحديث « انجلترا فى مصر »

ولما وجدت انجلترا أن هذه الثورة الاهلية لاتحقق مطامعها فى وطننا دست دسائسها لحدوث ثورة أخرى بين مصر ونزلا ئها بتدبير حادثة المالطى الشهيرة فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ واتخذت من مستر كوكسون قنصلها فى الاسكندرية مصدرا فعالا لاندلاع لهيبها !

وقد رأت فرنسا إزاء هذه الحوادث المزعجة أن الساعة قد حانت لوضع حد للدسائس الانجليزية فى مصر فدعت دول انجلترا والروسيا وأيطاليا والمانيا والنمسا لعقد مؤتمر فى طرابيا ودعت إليه كذلك الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر فرفضت الدولة الدعوة . أما مندوبو الست الدول الأخرى فقد اجتمعوا فى طرابيا فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٨٢ وأصدروا متفقين البروتوكول الآتى نصه :

« ان ممثلي الدول الموقعين على هذا البروتوكول يتعهدون باسم حكوماتهم ألا تبحث أية واحدة منها عند تسوية أية مسئلة من مسائل مصر عن أية منفعة أرضية أو عن أى امتياز أو أى نفع تجارى خاص لرعاياها دون أن يحصل عليه رعايا الدول الأخرى . »

لم يمض على هذا التعهد الصريح خمسة عشر يوماً حتى أصلى الاسطول الانجليزى فى ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ ثغر الاسكندرية نارا حامية هادما المساكن قاتلا الشيوخ والنساء والاطفال !

وقعت هذه الجريمة الأنجليزية الفظيعة على أثر إنذار أرسله الاميرال سيمور قائد الاسطول البريطانى الى الحكومة المصرية محتجاً على الاصلاحات التي تقوم بها فى طوابيها المشرفة على البحر مدعياً أنها موجهة ضد اسطوله بينما كانت أساطيل فرنسا وإيطاليا والنمسا مجتمعة فى جانب هذا الاسطول فى مياه الاسكندرية وطلب هذا الاميرال أن تسلم اليه فى الحال جميع طوابى الاسكندرية وأن يحتلها بجنوده !

احتجت الحكومة المصرية على هذا الادعاء بكتاب صريح عدل أرسلته إلى الاميرال سيمور كما أرسلت نصه إلى جميع قادة الاساطيل الاخر والى جميع ممثلى الدول فى مصر وهذا نصه : —

« لم تأت مصر عملا يستلزم إرسال الاساطيل المتحدة الى مياهها ولم تجد السلطة المصرية سواء أكانت مدنية أم عسكرية ما يبرر لومها ازاء ماجهر به الاميرال الانجليزى سوى بعض إصلاحات ضرورية لأبنيتها القديمة أما استحكاماتها فأنها فى هذه الساعة كما كانت يوم قدوم الاساطيل الدولية إلى مياه الاسكندرية

إننا هنا فى بلادنا ومن حقنا بل ومن واجبنا أن نستعد ضد كل

عدو يتخذ الاهبة لقطع الصلات السلمية تلك التى صرحت الحكومة الانجليزية بأنها مازالت قائمة :

«أن مصر المفروض عليها حراسة حقوقها وصيانة شرفها لا تستطيع أن تسلم أية طابية من طوابيها ـ دون أن تجبر على هذا التسليم بقوة السلاح ! وأنها تحتج على أعلانكم (للأميرال سيمور) الذى تسلمته اليوم وتلقى تبعة النتائج المباشرة وغير المباشرة التى يمكن أن تنجم عن مهاجمة الاساطيل على الأمة التى تعتدى بألقائها أول قنبلة على سلام مصر التام وعلى مدينة الاسكندرية الهادئة مستخفة بحقوق الاشخاص ومخالفة قوانين الحرب . . . »

ولقد احتج كذلك الباب العالى وفرنسا وبقية الدول على هذا الاعتداء الجنائى !

ألا إن اعتداء انجلترا هذا لصحيفة مؤلمة مروعة فى تاريخ مصر خاصة وفى تاريخ المدنيـة عامة ! صحيفة سجلها الدهر فى كتابه الازلى بحروف الخزى والعار كأبشع مثل من مثـل الخيانات البريطانية !

بعد أن دمر الاسطول الانجليزى طوابى الاسكندرية وقتل من قتل من أهلها المطمئنين أنزل جنده الى البر وساروا إلى القاهرة بيد أن القيادة الانجليزية لما وجدت مناعة الاستحكامات المصرية

التي كانت مستندة على الملاحات ورأت مستحيلا عليها اجتيازها غيرت خطتها وولت وجهها شطر ثغر السويس بعبور قناتها البحرية معتدية بذلك على الاتفاقات الدولية منتهكة حرمة حيدة القناة ! وهذا عمل آخر يؤيد احتقار السياسة الانجليزية لكل عقد دولى ولاى اتفاق تكون فيه منافع الدول مشتركة !

أجل . إن العقد الذي تم بين مصر وشركة القناة التى هى شركة دولية محضة والذى نال تصديق الباب العالى صاحب السيادة على مصر وعلى القناة جاءت بين مواده هاتان المادتان :

الأولى — تفتح قناة السويس البحرية والموانى التابعة لها دائما كممر محايد لجميع سفن الدول دون تمييز أى شخص أو أية جنسية مادام دفع الرسوم المقررة جاريا مجراه ومادامت القوانين المختصة بالشركة صاحبة الامتياز محترمة الجانب

الثانية — حيدة القناة المطلقة . وليس لأية دولة أن تستبقى فى مياه القناة أو على أبواب الموانىء الملحقة بها أية عمارة حربية . . »

احتج مسيو دى لسبس مدير شركة القناة باسم الشركة على هذا الاعتداء وكذلك احتجت حكومة الباب العالى وحكومة فرنسا احتجاجا شديدا على اغتصاب حيدة القناة !

(الاحتلال الانجليزى)

احتلت انجلترا القاهرة احتلالا عسكريا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣ (نفس التاريخ الذى اضطرتها فيه مصر أن تنجلى عن أبى قير فى سنة ١٨٠٧)

أعلنت للملأ كله بعد هذا الاحتلال أنها لم تدخل مصر عدوة بل دخلتها صديقة لتنشر السكينة بين الأمة المصرية ولتؤيد العرش ولتطمئن الدائنين على ديونهم وأن احتلالها مؤقت ويوم الجلاء قريب ؛

أعلنت انجلترا ذلك فى جميع تصريحاتها وتعهداتها الرسمية التى جاوزت الستين ميثاقا ! بينما كانت تدبر فى الخفاء ضم مصر إلى متملكاتها !

ولكى تدرك انجلترا ضالتها هذه رسمت لنفسها برنامجا سياسيا ذا قاعدتين مؤديتين إلى تحقيق هذا الضالة !

القاعدة الاولى أن تحتل مصر لتوجد لها فيها مركزا فعليا يوضع يدها على مرافقها وسيطرتها على حكومتها وتدبير جميع شؤونها ولو من وراء ستار !

والقاعدة الثانية أن تبدل مع مضى الأيام هذا المركز الفعلى بمركز دائم شرعى. أى أنها تجعل الاحتلال المؤقت دائما وتصبح مصر مستعمرة انجليزية بكل معانى الكلمة وبحكم القانون الدولى

ما احتلت انجلترا مصر حتى أخذت تمد سلطانها على مرافقها فبدأت بأرسال الجيش المصرى إلى صحروات السودان وقد فنى فيها غدرا وبلا رحمة لحرمانه أغلب مصادر الحياة وأكثر عدد الدفاع ووسائل المواصلات والمخابرات ! وأنشأت مكان ذلك الجيش جيشا جديدا صغيرا ووضعت على رأسه طائفة كبيرة من الضباط البريطانيين !

وألغت المراقبة الثنائية على المالية المصرية لتتصرف وحدها فيها ذلك التصرف السيىء الذى شرحته فى مؤتمر بروكسل

وألغت أيضا البرلمان المصرى لتعود البلاد إلى حكم الفرد إلى حكم المعتمد البريطانى وحده. وعوضت مصر عنه بمجلس شورى لبث احدى وثلاثين سنة دون أن تكون له سلطة فعلية ! ثم عوضت ذلك المجلس فى بدء سنة ١٩١٤ بجمعية تشريعية لم يكن لها سلطة المجالس النيابية المعروفة فى العالم المتحضر ! ثم أغلقت أبواب هذه الجمعية التشريعية من يونية سنة ١٩١٤ إلى يومنا هذا ... على أن المصاريف المقررة لهذه الجمعية المقدرة فى العام الواحد بمليونى فرنك لاتزال تنفق من الميزانية المصرية !

وفصلت عن مصر الملحقات التي ضمتها الفرمانات السلطانية إليها والبلاد التى كانت فتحتها بعد محاربتها الحبشة فى عام ١٨٧٦ . واستولت انجلترا نفسها على بعضها ومنحت البعض الآخر لبعض الدول وكلكم تعرفون زيلع وبربره وهرر ومصوع وسواحل الصومال

وغيرها مما هو مدون فى خريطة مصر فى آخر عهد الخديو اسماعيل باشا

وألغت كذلك عدة مدارس عليا وخاصة علمية وفنية كما وقفت بعث البعوث العلمية إلى أوربا مدي اثنى عشر عاما بحجة أن مصر ليست فى حاجة إلى علماء متفوقين وأن ماعندها من المدارس يكفى لتخريج ماهى فى حاجة إليه من صغار الموظفين !

ألغت ذلك وغير ذلك معوضة عنه بحشر زمر من أبنائها العاطلين والمتعنتين فى دواوين الحكومة المصرية . ولكى أضرب لكم بعض الامثال علي أدارة انجلترا لمصر فى مدى الأربعين عاما الماضية أجهر بأن الانجليزى فى الحكومة المصرية كفء لان يباشر جميع الوظائف فهو قانونى ومهندس وطبيب وإدارى ومعلم فى آن واحد وإذا أردتم المزيد فأن مصر قد رأت فى جيشها الصغير الذى شكلته يد انجلترا مالم يره بلد آخر . رأت فى وقت من الاوقات على رأس الاورطة الواحدة من البيادة المؤلفة من ستمائة جندى سبعة ضباط عظام واحد برتبة القائمقام وستة برتبة البكباشي وكلهم من الانجليز !

أما المرتبات التى قدمتها السياسة الانجليزية لابناء التاميز من مال المصريين فانها مرتبات يستحيل على انجلترا نفسها أن تعطى ربعها لموظفيها الذين يشغلون فيها نفس المراكز التى يشغلونها فى مصر ! . هذا وأن مجموع ماتنفقه مصر اليوم من ميزانيتها على هؤلاء

لانجلترا مع نفقات جيش الاحتلال يربو على مائة مليون من الفرنكات!

***

هذا موجز عن حالة مصر الأدارية مع الاحتلال البريطانى وأما حالتها من الوجهة السياسية فأن انجلترا لما رأت معارضة الأمة المصرية من جهة ومعارضة الدول من جهة أخرى لوجودها فى مصر عملت بما جبلت عليه من الحيل السياسية لتجعل مركزها الباطل مركزا مشروعا من الوجهة الدولية ولكن جهودها فى هذه السبيل قد ذهبت ولله الحمد سدى لأن مركز مصر يحتم على أمتها وعلى العالم المنتفع بقناة السويس أن يكونوا فى يقظة تامة تحول بين مصر وبين مطامع انجلترا فيها!

سعت انجلترا بأشكال متباينة لتجعل مركزها شرعيا كما قلنا. ففى سنة ١٨٨٣ بعثت مندوبها لورد دوفرين إلى الاستانة ليتحايل على الباب العالى بمساومته فى أن يبيع لانجلترا الخراج الذى تدفعه مصر سنويا للدولة العثمانية أملا فى أن تحل انجلترا بهذا البيع محل الدولة العثمانية ومن ثمة تكون لها السيادة الفعالة على مصر من الوجهة المادية الصرفة! ولكن لورد دوفرين فشل فى تحايله إذ أدرك السلطان عبد الحميد الثانى الحيلة الانجليزية ورفضها رفضا باتا!

وفى سنة ١٨٨٥ سعت بواسطة سفيرها فى الاستانة الى ان يحض الباب العالى على إعلانه استقلال مصر التام حتى تنفرد وحدها بالعمل

فى مصر وقد رد الباب العالى على هذه الدسيسة بأنه لا يعقل أن انجلترا التي وقفت حجر عثرة فى سنة ١٨٤٠ فى سبيل استقلال مصر التام محترمة حقوق الدولة العلية تأتى اليوم وهى محتلة مصر احتلالا لا يبرره العدل تتطلب ما أنكرته منذ ٤٥ عاما !

وسعت من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٨٨ إلى أن تجعل لها حقا شرعيا فى أمور مصر إذ ندبت سير دورمندولف ليخابر الباب العالى فى شأن جلاء الجنود الانجليزية عن وادى النيل وندبت الدولة العثمانية الغازى أحمد مختار باشا وسافر إلى مصر لتدور بينه وبين مندوب إنجلترا المخابرة فى هذا الشأن . ولكن الشرائط التي قدمتها انجلترا عن لجلاء جنودها مصر حالت دون الاتفاق اذ طلبت أن يحدد للجلاء ثلاث سنوات أى يكون فى سنة ١٨٩٠ وأن يكون لها الحق بعده فى العودة الى مصر لتسكين أية فتنة تقوم فيها الأمر الذى ليس عسيرا على انجلترا أن تخلقه وهى الماهرة فى ايقاظ الفتن وإشعال الثورات وما حديث الفتنة العرابية عنا ببعيد . فضلا على أنها تكون صاحبة حق خاص فى مصر إذا قبل شرطها هذا !

وعند ما حددت مناطق النفوذ فى جهات خط الاستواء فى سنى ١٩٠٠ و ١٩٠١ و ١٩٠٤ وعقدت انجلترا اتفاقات مع ألمانيا وايطاليا وحكومة الكونغو فى شأن حدود السودان المصرى . ادعت أن قبول الدول الاتفاق معها على هذه الحدود ليس إلا اعترافا ضمنيا

بمركزها الخاص فى مصر .

وكذلك ظنت انجلترا أنها أصبحت ذات مركز خاص فى مصر بعد أن عقدت اتفاقية ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ مع فرنسا فى شأن مراكش ومصر . بيد أن جميع علماء القانون الدولى يعتبرون مركزها بعد الاتفاق كما كان من قبل لم يتغير ولم يتبدل. مركز الاعتداء الصريح على القانون الدولى ! وأن احتلالها غير شرعى ولنضرب لحضراتكم مثلا رأى مسيو دبوى أحد علماء هذا القانون وهو رأى جميع زملائه بلا مراء . قال هذا العالم الشهير !

« إن اتفاق ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلترا لم يكن من شأنه تغيير المركز الفعلي الذى أوجدته انجلترا لنفسها فى مصر . وكل مافعلته فرنسا أنها رضيت بألا تعرقل إدارة انجلترا فى مصر . هذه الادارة التي لم يسو أمرها بعد والتى لم يعترف بها نهائيا ! »

وبناء على ذلك فان انجلترا لم تحصل على بغيتها من السعى فى جعل مركزها الذى هو مركز الغاصب مركزا شرعيا يبيح لها أن تبقى فى بلادنا أو تدير أمورنا. فلا اتفاق السودان الباطل . ولا اعترافات الدول الضمنية فى تحديد السودان . ولا الاتفاق الفرنسى الانجليزى لا شىء من هذه الاتفاقات زحزح مركز الاحتلال غير الشرعى تجاه القانون الدولى. بل على الضد من كل ذلك اعتبر جميع المتشرعين وعلماء القانون الدولى وكذلك جميع الحكومات فى علاقاتها مع الدولة العلية

من جهة ومع مصر من جهة أخرى أن انجلترا ليست فى وادى النيل إلا منتهكة حرمة المعاهدات الدولية معتدية على مصر باحتلالها وأن هـذا الاحتلال مازال على صفته غير الشرعية حتى إعلان الحرب الأوربية الأخيرة !

***

أعلنت انجلترا فى ١٨ ديسمبر سنه ١٩١٤ حمايتها وادى النيل من تلقاء نفسها وحملت ألمانيا والنمسا فى معاهدتى فرساى وسان جرمان على أن يعترفا بهذه الحماية كما حملت سلطان تركيا فى معاهدة سيفر التى لم يقرها مجلس المبعوثين على أن ينزل لها عن سيادته !

قلنا ان انجلترا مافتئت تبحث عن تغيير مركزها الباطل فى مصر بمركز شرعى يستوى ووجهه القانون الدولى ونكرر القول بأنها منذ احتلالها مصر إلى اليوم لم تدرك ضالتها فلا إعلان الحماية ولا توريث العرش ولا معاهدات الصلح القسرية مع بعض الدول ولا إقرار السلطان العثمانى . لاشئ من ذلك أقر انجلترا على المركز القانونى الذى تسعى إلى الحصول عليه فى مصر اذ ليست الحماية الا اتفاقا بين دولتين مستقلتين منحت بموجبه الدولة المحمية كل سيادتها أو شطرا منها للدولة الحامية ؟ اذا يكون الشرط الاساسى لوجود الحماية قبول الدولة المحمية ؟ وبناء على ذلك تكون الحماية باطلة مادامت الدولة المدعى حمايتها لم تقبلها حتى لو اعترفت جميع دول العالم بوجودها !

إن الحماية من وجهة أخرى تشبه عقد بيع أو هى عقد بيع للسيادة القومية أو لشطر منها . ولا يمكن اعتبار عقد البيع شرعياً إلا إذا صدر من المالك وتم برضاه ! وكل بيع صدر من غير المالك باطل كل البطلان ولا يمكن اعتباره من أى وجه من الوجوه بيعاً قانونيا !

إن انجلترا لاتجهل ذلك وأنها تعلم أن رضا الأمة المصرية ببيع سيادتها أو شطر منها لها هو الشرط الاساسى لوجود الحماية البريطانية فى وادى النيل كما تعلم كذلك أن اعتراف الدول بهذه الحماية لاقيمة له فى نظر القانون الدولى ما دام عقد الحماية لم توقع عليه ولم تعترف به الأمة المصرية ! وليس اعتراف الدول فى مثل هذه الحال إلا تعهدا ضمنيا منها باحترام الحماية عند مايتم فعلا العقد الخاص بها بين المحمية والحامية !

إن انجلترا لاتجهل عدا ذلك أنها لا تستطيع الأدعاء بأن سكوت الامة المصرية قبول ضمنى للحماية . لأن هذه الأمة رفعت صوتها فى كل مكان سواء أكان قبل الحرب أم بعدها محتجة على الاحتلال أولا وعلى الحماية ثانياً غير معترفة لانجلترا بمركز شرعى فى بلادها وأنها لاتزال معتدية على حريتها وعلى استقلال وطنها ببقائها فى مصر !

لهذه الأسباب التي تعلمها انجلترا حق العلم نراها تسعى بجميع وسائل الدهاء والحيل راجية أن تتفق مباشرة مع الأمة المصرية لتصل

إلى غرضها ولتكون حامية وادى النيل برمته باعتراف وأقرار الأمة المصرية نفسها !

سعت انجلترا لبلوغ هذه الغاية فأوفدت إلى مصر لجنة بريطانية برئاسة لورد ملنر وصلت إلى القاهرة فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ وبذلت هذه اللجنة مافى وسعها فى كل مدينة من مصر وفى كل قرية من قراها لتحمل الأمة المصرية على الدخول معها فى مفاوضات وأصدرت بلاغاتها فى هذا الشأن. بيد أن الأمة المصرية أدركت الحيلة البريطانية التي لاترمى بهذه المفاوضة إلا إلى اعتراف المصريين اعترافاً ضمنيا بأن مسئلتهم إزاء انجلترا ليست إلا مسئلة داخلية لا مسئلة دولية فرفضت أمتنا اليقظة تلك المفاوضة بمقاطعة اللجنة البريطانية كل المقاطعة . . .

عادت لجنة لورد ملنر بخفى حنين إلى لوندرة معتقدة كل الاعتقاد أن الوطنية المصرية استوت وأن التحايل على المصريين لقبول حماية حائطة من الكرامة مذلة للنفوس الأبية ليس إلا ضربا من المحال! بيد أن هذه اللجنة بناء على إرشاد حكومة مستر لويد جورج عادت وقدمت للأمة المصرية مشروع اتفاق بين انجلترا ومصر فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ . . . .

ولما رأت الأمة المصرية قاطبة أن هذا المشروع البريطانى لايحقق أمانيها فى الاستقلال التام لوادى النيل . وأن قبوله ليس الا

رضا بالحماية المزرية — رفضته رفضا باتا و بينت أسباب الرفض مفصلة في تقاريرها وأجوبتها !

عندئذ طلبت الحكومة البريطانية إلى عظمة سلطان مصر أن يوفد وفداً رسميا ليتداول وإياها فى شأن تبديل الحماية المزعومة بعلاقة أخرى بين انجلترا ومصر تتحقق بها الضمانات التى تدعيها انجلترا لنفسها وتطمئن مصر فى آن واحد على أمانيها القومية . . .

سافر الوفد الرسمى الى لوندرة و بدأ المداولة مع الحكومة الانجليزية من ١١ يوليه سنة ١٩٢١ الى ١٠ نوفمبر من نفس السنة اذ قدم له لورد كرزون باسم الحكومة البريطانية مشروع اتفاق سمته الصحف البريطانية منحة انجليزية !

لما رأى الوفد أن المشروع البريطانى لا يؤدي الا الى الحماية ذاتها بل ويؤدي الى ضم مصر ضما حقيرا الى متملكات انجلترا وأن هذه مصرة على استرداد كامل حقوقها قطع المفاوضة بصفة رسمية!

على أثر هذا القطع قدم لورد اللنبى ممثل انجلترا فى مصر مشروع الحكومة الانجليزية هذا ورد الوفد عليه وأرفقهما بمذكرة تفصيلية الى سلطان مصر فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١

وما نشرت الصحف المصرية هذه الثلاثة البيانات حتى قامت الأمة المصرية على بكرة أبيها محتجة على سوء طوية انجلترا وادعائها لنفسها مركزاً ممتازا فى مصر ! ومن ثم تجددت المظاهرات السلمية

ضد انجلترا فى كل مكان وكذلك استقالت وزارة المفاوضة

لم تلزم انجلترا الصمت أمام هذه المظاهرات من أبناء البلاد بحجة أنهم مهيجون وحملت على الجماهير المصرية بعددها ومهلكاتها فقتلت وجرحت منهم بأيدى جنودها عدداً كبيرا فاحتجت جميع طبقات الامة بلا استثناء احتجاجات شديدة على الجرائم والفظائع التى ترتكبها انجلترا على مشهد من العالم بأسره فى وادى النيل واتحدت كلها اتحاداً تاما على مقاطعة انجلترا من جميع الوجوه وابى المصريون أن يشكلوا وزارة بدل تلك التى تفاوضت ثم قطعت المفاوضة ثم استقالت

ولما رأت الحكومة الانجليزية أنها أمام أمر واقع فى مصر وان التهديد لم يجدها مع المصريين نفعا وأن وقوع مصر فى هذه الفوضى يضعف مركزها كثيراً أمام الدول التى من نفعها استتباب السكينة فى مصر وعلى الأخص لما رأت أن مصر مكثت زهاء شهرين بلا حكومة — لما رأت ذلك وغير ذلك استدعت مندوبها لورد اللنبى الى لوندرة وبعد أن حادثته فى شؤون وادى النيل استقر قرارها على أن يعود الى مصر حاملا تصريحاتها النهائية فى شأن مطالب المصريين فعاد اليها وما وصل الى القاهرة حتى قدم الى عظمة السلطان كتابا بتوقيعه فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ومع هذا الكتاب تصريحات الحكومة البريطانية. وفى ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ وافق مجلس العموم

البريطانى على هذه التصريحات .

أما كتاب الناورد اللنبي فها هو نصه :

« ياصاحب العظمة

١ — أتشرف بأن أعرض لمقام عظمتكم ان الناس قد ذهبوا فى تأويل بعض عبارات المذكرة التفسيرية التى قدمتها الى عظمتكم فى الثالث من شهر ديسمبر مذاهب تخالف أفكار الحكومة البريطانية وسياستها وهو ما آسف له أشد الأسف

٢ — ولقد يخال المرء مما نشر عن هذه المذكرة من التعليقات العديدة أن كثيراً من المصريين ألقى فى روعهم أن بريطانيا العظمى توشك أن ترجع فى نواياها القائمة على التسامح والعطف على الأمانى المصرية وأنها تنوى الانتفاع بمركزها الخاص بمصر لاستبقاء نظام سياسي ادارى لا يتفق والحريات التي وعدت بها

٣ — غير أنه ليس شيء أبعد عن خاطر الحكومة البريطانية من هذه الفكرة بل ان الاساس الذي بنيت عليه المذكرة التفسيرية هو أن الغاية من الضمانات التى تطلبها بريطانيا العظمى ليست ابقاء الحماية حقيقة أو حكما وقد نصت المذكرة على أن بريطانيا العظمى صادقة الرغبة فى ان ترى مصر متمتعة بما تتمتع به البلاد المستقلة من ميزات أهلية ومن مركز دولى

٤ — واذا كان المصريون قد رأوا فى هذه الضمانات انها

تجاوزت الحد الذى يلتئم مع حالة البلاد الحرة فقد غاب عنهم ان انجلترا انما ألجأها الى ذلك حرصها على سلامة نفسها تلقاء حالة تتطلب منها أشد الحذر خصوصا فيما يتعلق بتوزيع القوات العسكرية على أن الاحوال التي يمر بها العالم الآن لن تدوم ولا يلبث كذلك أن يزول الاضطراب السائد فى مصر منذ الهدنة والامل وطيد فى ان الاحوال العالمية صائرة الى التحسن ؛ هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فكما قيل فى المذكرة سيجئ وقت تكون فيه حالة مصر مدعاة الى الثقة بما تقدمه هى من الضمانات المصرية لصيانة المصالح الاجنبية

٥ — أما أن تكون انجلترا راغبة فى التداخل فى إدارة مصر الداخلية فذلك ما قالت فيه الحكومة البريطانية ولا تزال تقول أن أصدق رغباتها وأخلصها هو أن تترك للمصريين إدارة شؤونهم . ولم يكن يخرج مشروع الاتفاق الذى عرضته بريطانيا العظمى عن هذا المعنى وإذا كان قد ورد فيه ذكر موظفين بريطانيين لوزارتى المالية والحقانية فان الحكومة البريطانية لم ترم بذلك الى استخدامهما للتدخل فى شؤون مصر وكل ما قصدته هو أن تستبقى أداة اتصال تستدعيها حماية المصالح الاجنبية

٦ — هذا هو كل مرمى الضمانات البريطانية ولم تصدر هذه الضمانات قط عن رغبة فى الحيلولة بين مصر وبين التمتع بحقوقها الكاملة فى حكومة أهلية

٧ — فاذا كانت هذه هى نوايا انجلترا فلا يمكن لاحد أن ينكر أن انجلترا يعز عليها أن ترى المصريين يؤخرون بعملهم حلول الاجل الذى يبلغون فيه مطمحاً ترغب فيه انجلترا كما تتوق إليه مصر أو أن ينكر أنها تكره أن ترى نفسها مضطرة الى التدخل لرد الامن الى نصابة كلما أدركه اختلال يثير مخاوف الاجانب ويجعل مصالح الدول فى خطر . وأنه ليكون مما يؤسف له أن يرى المصريون فى التدابير الاستثنائية التى اتخذت أخيراً أى مساس بمطمحهم الاسمى أو أية دلالة على تغيير القاعدة السياسية التي سبق بيانها فان الحكومة البريطانية لم يعد غرضها أن تضع حداً لتهييج ضار قد يكون لتوجيهه الى أهواء العامة نتائج تذهب بثمرة الجهود القومية المصرية ولذلك كان الذى روعى بوجه خاص فيما اتخذ من التدابير مصلحة القضية المصرية التى تستفيد من أن البحث فيها يجرى فى جو قائم على الهدوء والمناقشة باخلاص .

٨ — والآن وقد بدت تعود السكينة الى ما كانت عليه بفضل الحكمة التي هى قوام الخلق المصرى والتى تتغلب فى الساعات الحاسمة فانى لسعيد أن أنهى الى عظمتكم أن حكومة جلالة الملك تنوي أن تشير على البرلمان باقرار التصريح الملحق بهذا وأنى لعلى يقين بأن هذا التصريح يوجد حالة تسود فيها الثقة المتبادلة ويضع الاساس لحل المسألة المصرية حلا نهائياً مرضيا .

٩ — وليس ثمت ما يمنع من الآن من اعادة منصب وزير الخارجية والعمل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر !

١٠ — أما انشاء برلمان يتمتع بحق الاشراف والرقابة على السياسة والادارة فى حكومة مسؤولة على الطريقة الدستورية فالامر فيه يرجع الى عظمتكم والى الشعب المصرى

واذا أبطأ لاى سبب من الاسباب انفاذ قانون التضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) السارى على جميع ساكنى مصر والذى أشير اليه فى التصريح الملحق بهذا فاننى أود أن أحيط عظمتكم علما بأننى ؛ الى أن يتم الغاء الاعلان الصادر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ ؛ سأكون على استعداد لايقاف تطبيق الاحكام العرفيـة فى جميع الامور المتعلقة بحرية المصريين فى التمتع بحقوقهم السياسية

« ١١ — فالكلمة الآن لمصر وانه ليرجى أنها وقد عرفت مبلغ حسن استعداد الحكومة البريطانية ونواياها تسترشد فى أمرها بالعقل والروية لا بعامل الاهواء

ولى مزيد الشرف الخ

(اللورد فيلد مارشال)

القاهرة فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

وأما تصريح الحكومة البريطانية فهذا هو نصه :

تصريح لمصر

بما ان حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التي جاهرت بها ترغب في الحال في الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة

وبما ان للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر أهمية جوهرية للامبراطورية البريطانية ؛ فبموجب هذا تعلن المبادئ الآتية :

١ — انتهت الحماية البريطانية على مصر . وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقرار الاجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل على جميع ساكني مصر تلغى الاحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤

٣ — الى ان يحين الوقت الذي يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومه جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالامور الآتي بيانها وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولي هذه الامور وهي :

ا — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر

ب — الدفاع عن مصر من كل اعتـداء أو تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة

ج - حماية المصالح ألاجنبية فى مصر وحماية الاقليات

د — السودان

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ما هى عليه الآن »

وفى ٢٧ مارس سنة ١٩٢٢ نشرت الشركات التلغرافية من لوندره النبأ الآتى نصه :

« أبانت الحكومة البريطانية فى منشورها الذى أرسلته لجميع الحكومات بشأن نزولها عن حماية مصر واعترافهـا باستقلالها بأنها لاتحمى فى مستقبل الأيام الوطنيين المصريين المقيمين فى بلاد أخر ولكن ما دام نزولها عن حماية مصر لم يغير حالتها القديمة إزاءها ولا إزاء الدول الأخرى فأنها تعتبر كل تدخل أجنبى فى الشؤون المصرية كعمل عدائى ضدها وتكون فى حل من أن تدفع بجميع الوسائل التى فى قدرتها كل نفوذ استعمارى يمتـد الى أرض أرض مصر . . ! »

***

هذه تصريحات انجلترا ودعاويها فى مصر ! فهل فيها ما يجعل

استقلال وادى النيل التام أمراً واقعا ؟ أفيها ذكر جلاء الجنود الانجليزية عن وادى النيل وتخلى انجلترا عن الاشتراك فى ادارة السودان ؟ أفيها ما يؤكد الغاء الحماية الباطلة التي أعلنتها انجلترا من تلقاء نفسها إبان الحرب مدعية أنها ضرورة حربية ؟

الا إن انجلترا بهذه التصريحات لم تعلن إلا الوسيلة التى بها تنظم الحماية وتؤيد الحقيقة القائلة برغبتها فى انتزاع كل حقوق الامة المصرية فى الاستقلال !

إن مصر بأسرها تعتبر الحالة التي حددتها انجلترا بتصريحاتها هذه كاعتداء جديد على استقلالها الفعلى وحريتها الشرعية !

إن انجلترا بينما تعلن استقلال مصر أى كفاءتها الادارة شؤونها بنفسها تحتم عليها فى آن واحد بما تشترطه لنفسها داخلها ما يجعلها مرتبطة بها على الدوام !

وإلا فليقل لنا ساسة الانجليز وجميع سياسة العالم أيكون استقلال مصر وسودانها موجودا بينما تعد انجلترا العدة للبقاء فيهما مدعية أنها لا تطمع إلا فى حماية خطوط المواصلات بين اطراف امبراطوريتها ؟

أليس وجود جندى أجنبي واحد شاكى السلاح فوق أرض الوطن بصفة دائمة كافيا لتأييد الاحتلال وثلم الاستقلال ؟

وهل يمكن التوفيق بين القول بألغاء الحماية بينما تدعى انجلترا فى آن واحد حقها فى حماية الاقليات المصرية والجاليات الاجنبية المرابطة مصر ؟

وكيف تكون مصر مستقلة استقلالا حقيقيا إذا كان سودانها وهو جزء لا يتجزأ منها تحت السيطرة الانجليزية ؟ أليس اعتراف انجلترا باستقلال مصر اعترافاً ضمنيا بأن الامة المصرية كفء لادارة شؤونها ؟ — وهل من يكون كفأ لادارة مصر لا يكون فى الوقت نفسه كفأ لادارة السودان ؟

لقد اعتمد ساسة الانجليز فى هذه الأيام على المصالح الاجنبية فى مصر فاتخذوا منها متكأ فى جدلهم كلما توقشوا الحساب فى المسئلة المصرية ! يدعى الانجليز أن الدول خولتهم صيانة مصالحها فى مصر وحماية رعاياها . وانا لو سلمنا جدلا بصحة هذا الادعاء لا نستطيع أن نسلم معه باحتلال جنودهم لها لأن هذه المصالح ليست شيئاً مذكورا فى جانب كرامة الامة التى لولاها ولولا مرافقها الكلية لما نزح إلى مصر أجنبى واحد . . . . على أننا نتساءل لماذا لم تحتل فرنسا فى الماضى جميع البلاد التي يقطنها المعتنقون للمذهب الكاثوليكى بما انها كانت حاميتهم فى الشرق ؟

أما آن لانجلترا أن تنزع غل الاستعمار والافتئات على العدل من نفوس أبنائها وتسمع صوت الحقيقة المنادي بأن شره الأمم السكبيرة كان على الدوام سبب سقوطها وانحطاطها !

أما آن لها أن تنصف نفسها وتنقذ شرفها بانصاف أمة رفعها التاريخ فى ماضي الايام على أمم كثيرة فتترك لها حريتها وإدارة

سودانها بجلائها عن بلادها ؟

ألم تدرك انجلترا حتى الساعة مركزها المخجل إزاء مصر بعد أقسامها المتكررة وأيمانها المتعاقبة. هذا البلد الذى كان أهله سادة علماء متحضرين يوم كانت انجلترا لا وجود لها ؟

إننا لكى ندرك حالة مصر الحاضرة التى يدعى الانجليز أنها مستقلة استقلالا تاما نقارن بينها وبين الحالة التي كانت عليها وهى مستقلة استقلالا داخلياً تحت السيادة العثمانية فنجد أن تلك ما كان يحتلها جندى تركى واحد وما كان للحكومة العثمانية أن تتدخل فى أى أمر من أمورها الداخلية أو تؤمن فيها مواصلاتها بأنشاء المحطات التلغرافية أو تراقب قضاءها وادارتها وماليتها بمستشاريها أو تنزع من لبّ إدارتها السودان لتديره وحدها . . . الى غير ذلك من الاعتداءات !

أجل. هذه كانت حالة مصر المستقلة استقلالا داخليا أزاء الدولة صاحبة السيادة عليها . . . ولكن مصر التى ادعى ساسة الانجليز أنها مستقلة استقلالا تاما لا تزال مكبلة بالسلاسل والاغلال البريطانية ولا يزال الاحتلال قائما فى نواحيها وسيف الاحكام العرفية مرفوعا فوق رؤوس ابنائها!

لقد دوى صوت الامة المصرية فى الافاق محتجة على تحايل انجلترا وخداعها باعلانها للملأ استقلالا خياليا لا حقيقة فيه. مؤكدة

أن اعتداء انجلترا على كرامتها لا يزال قائما وأن استقلال بلاد الفراعنة لا يزال مسلوبا !

قدمت الامة المصرية بهذه الاحتجاجات المتوالية برهانا جديدا على أنها لاتساوم فى حقوقها ولا تأخذها فيها مخادعة ولا تلهيها عن المطالبة بها بعزم وقوة مواعيد عرقوبية أو أقوال خلابة . ماضية فى سبيلها مشهدة الأمم كافة على حنث انجلترا فى أقسامها وخلفها فى مواثيقها ومضت انجلترا كذلك فى جبروتها وعسفها مرهقة ما شاء جورها مرتكبة من المظالم ما يدمى أقسى القلوب تحت لواء الاحكام العرفية..

المالية المصرية

إنه لأدراك حقيقة المركز المالى لمصر يجب مراجعة الحوادث التي وقعت فى حكم الخديو اسماعيل باشا .

كان الدين المصرى عند ما ارتقى هذا الخديو عرش مصر نحو عشرة ملايين من الجنيهات ثم بلغ بعد ثلاثة عشر عاما من حكمه نحو مائة مليون جنيه ولهذه الزيادة أسباب عديدة . منها الغرامة التي حكم بها نابليون الثالث ملك فرنسا على مصر فى مسئلة قناة السويس (عند ما ارتقى اسماعيل باشا عرش مصر وقع بينه وبين شركة قناة السويس اختلاف . أدى الى اختيار الطرفين نابليون الثالث حكما فكان فى حكمه بالشركة رحيما ولمصر غريما) . ومنها ما أنفقه الخديو فى

مهرجان افتتاح القناة وفى حملة مصر على الحبشة . وفى الاصلاحات الداخلية حيث نهض بالجيش والبحرية والمعارف والزراعة والصناعة نهوضا كبيرا وأنشأ من الحصون والابنية الضرورية والكمالية عددا وفيرا. ومنها مارشا به رجال الدولة العلية ليساعدوه على نيل امتيازات كثيرة لمصر ولمنحه لقب خديو . . . إلى غير ذلك من الاسباب المشروحة شرحا وافيا فى المؤلف الثمين « انجلترا فى مصر » ذلك الذى دبجه حديثا يراع المحسنة الكبيرة والكاتبة الصادقة القديرة مدام جوليت آدم . . .

أعوز المال اسماعيل بعد خروج فرنسا من حرب السبعين وقد تعود من قبل أن يجده فيها . ولما لم تسطع إقراضه لحرج مركزها المالى صحت عزيمته على بيع الاسهم التى كانت تتملكها مصر فى شركة قناة السويس (١٧٦٦٠٢ سهم) ولما لم يجد كذلك من فرنسا رغبة فى اشترائها ولتملكها أغلبية أسهم الشركة ـ ولى وجهة شطر انجلترا فابتاعتها منه بأربعة ملايين من الجنيهات وهو ثمن بخس إذ أنها تقدر اليوم بأربعين مليونا على أقل تقدير . . .

بعد هذه الصفقة التي غبنت فيها مصر تبوأ اسماعيل مقعد الاقتراض فى انجلترا التي اتخذها قبلته كلما أعوزه المال غير قارىء العواقب التي يدبرها له ولوطنه دهاتها المستعمرون . . .

ومنذ ذلك الحين كبر نفوذ الماليين والمستعمرين فى وادى النيل

وأعدوا العدة لاحتلال مصر باسم المدنية والسكينة والعرش وديون الدائنين. وقد كانوا يعملون بادىء بدء فى الخفاء حتى إذا ما تملكوا الأسباب وأصبحوا ذوى حقوق فى شركة القناة ولهم ديون على مصر وأصحاب نفوذ على أميرها حائزين ثقته بهم — ظهروا على المسرح معلنين للملأ وجوب العمل لمراقبة مالية مصر مراقبة فعالة حتى لا تقع فى الافلاس التام فتضيع ديون البريطانيين بين أيدى الفوضى وهوى الحاكم المطلق!

وثق اسماعيل ثقة عمياء بالسياسة الانجليزية معتقدا أنها قائمة على الصدق والاخلاص ناسيا دهاء الانجليز وأنهم جبلوا على أن يبطنوا غير ما يظهرون. ناسيا أطماعهم فى وادي النيل وتاريخهم مع جده الكبير يوم هاجموا رشيداً وأبا قير!

وثق بهم وممكن لابنائها فى إدارة مصر وسودانها بتعيين بعض البريطانيين فى مراكز مصرية سامية. وخول للحكومة الانجليزية حق تفتيش السفن المصرية فى البحر الأحمر بناء على اتفاق سنة ١٨٧٧!

ولقد نجم عن استدانة اسماعيل من مالي الانجليز وعطفه عليهم وتقديمه الوظائف فى حكومة بلاده لابنائهم أن انجلترا كانت البادئة بطلب عزله ممثلة الفصل الاول من رواية النفوذ الدولى فى مصر منتهية

الى تمثيل الفصل الثانى فصل الاحتلال ووضع يدها على مرافق مصر جملة واحدة . . .

يظن الكثيرون من رواة الحوادث المصرية أن سبب عزل اسماعيل إنما كان تصرفاته المالية السيئة إلى حد أن مصر لم تستطع فى آخر حكمه دفع أرباح ديونها. كلا . إن مصر كانت قادرة كل القدرة على اصلاح ارتباكاتها وعلى دفع الأرباح واستهلاك الديون ولكن انجلترا بسوء نيتها وما تضمره لمصر طبقا لخطتها المرسومة من قبل أذاعت هذا السبب غير تاركة لمصر تدبير أمرها حرة بما حتمته عليها من المراقبات الأوربية وبما جرته من الاهانة على كرامة عرش مصر إذ أرادت ان يكون الجالس عليه آلة فى يد سلطة أجنبية . . .

عرفت انجلترا أن وراء الدين المطالبة بسداده وأن وراء التلكؤ فى الدفع الاحتجاج وعرفت من أبنائها الموظفين فى إدارة مصر مبلغ شمم اسماعيل فأدانت فطالبت فضايقت فأهانت فعزلت فاحتلت ! !

تلك الدواعى السياسية كافية لأدراك الهدف بتسوىء سمعة مصر المالية وإثارة الخواطر الدولية عليها حتى تدرك غايتها!

وجدت انجلترا بعد خروج فرنسا من محاربة ألمانيا فى سنة ١٨٧٠ مسوغا لأقراض اسماعيل المال بسخاء لم يعهده مدين من قبل فى ماليها ووجدت الفرصة سانحة لخلعه وهو الماهر الأبى ليخلو لها الجو مع من يخلفه وهو السهل اللين العريكة الطيب السريرة . وجدتها سانحة

بعد خروج الدولة العلية مهزومة من محاربة الروس فى سنة ١٨٧٨ قم لها ما أرادت .

أضمرت انجلترا لمصر من الشر ما اضمرت وانتظرت الحوادث التي تخدمها حتى إذا ما جاءتها لم تتركها تفلت من بين يديها دون أن تستفيد منها غير حاسبة حسابا لا للعهد ولا للشرف ولا للتاريخ ولا لأبناء مصر الذين إن خانتهم الاقدار حينا فأنها لابد أن تنصفهم أحيانا ماداموا لبلادهم مخلصين وبكرامتهم القومية محتفظين وبعروة اتحادهم الوثقى مستمسكين.

ان السبب الرئيسى لعزل الخديو اسماعيل باشا يجده الباحث فى الارتباكات المالية التي حالت بين الحكومة المصرية وبين دفعها بعض ارباح ما عليها من الديون الخارجية .

حتمت الدول الدائنة إزاء هذه الحالة المرتبكة على الحكومة المصرية ان تنشىء صندقا عاما هو صندوق الدين العام الذى صدر به مرسومان خديويان الأول فى ٢ مايو والثانى فى السابع منه عام ١٨٧٦ .

وخول هذا الصندوق أن يتسلم من الاموال المصرية العامة المبالغ الخاصة بالجزء المستهلك من الديون وبالارباح السنوية المقدرة لهذه الديون مع مبلغ احتياطى قدر بمليونين من الجنيهات المصرية . وأنشئت عدا هذا الصندوق مراقبة اخرى هى المراقبة الثنائية بناء على

طلب فرنسا وانجلترا وصدر بها مرسوم خديوى فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وكانت مهمتها مراجعة وإدارة مايتبقى فى المالية المصرية بعد فصل مايخص صندوق الدين العام .

وعلى أثر عزل الخديو اسماعيل باشا أصدر خلفه الخديو محمد توفيق باشا مرسوما فى ٣١ مارس سنة ١٨٨٠ بانشاء لجنة التصفية الدولية . ولقد اعتبر التقرير الذى قدمته هذه اللجنة بعد أبحاثها وتدقيقاتها قانونا للتصفية كما اعتبرته الدول شطرا من القانون الدولى

إن هذا القانون الذى بلغت مواده تسعا وتسعين مادة قد حدد رقم الدين ومصادر المالية المصرية وفى الجملة حالة البلاد المالية والاقتصادية

هذا ولقد بلغ الدين المصرى العام حتى ذلك التاريخ ما يأتى :

	جنيه انجليزى
الدين الممتاز	٢٢٫٦٨٩٫٨٠٠
الدين الموحد	٥٨٫٠٤٠٫٣٢٦
قرض الدائرة السنية والدائرة الخاصة	٠٩٫٥١٨٫٨٠٤
قرض الدومين لروتشلد	٨٫٥٠٠٫٠٠٠
مجموع الدين المصري العام	٩٨٫٧٤٨٫٩٣٠ جنيه انجليزى

ولقد هبط هذا الدين الى ٩٤ مليونا من الجنيهات فى سنة

١٨٨٢ كما بينه كتاب الاحصاء الرسمى للحكومه المصرية .

وبناء على القاعدة التى وضعها قانون التصفية وأقرتها الدول الدائنة وفى مقدمتها انجلترا قد تقرر أن يستهلك هذا الدين فى خمسة وستين عاما من ابتداء عام ١٧٨٦ .

وعلى ذلك فانه كان يجب فى الستة والاربعين عاما الماضية التى فى أغلبها أدارت اليد الانجليزيه المالية المصرية أن يستهلك من هذا الدين سبعون مليون جنيه . بيد أنه للأسف لم يستهلك منه شىء ولا يزال السبب لعزل الخديو اسماعيل باشا باقيا حتى اليوم !

بقى الدين المصري العام على ماهو عليه بالرغم من بيع دور الصناعات والسفن والادوات حتى ادوات النقود والعقارات والشىء الكثير من متملكات الحكومة المصرية بامر المحتلين وبالرغم من زيادة الايرادات بارتفاع قيمة الرسوم الجمركية ونماء المستهلكات الداخلية بنماء عدد الامة المصرية .

***

لقد حددت لجنة التصفية نفقات الادارة المصرية فى عام ١٨٨٠ بمبلغ ٤٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه مصرى فى السنة

وحددها مؤتمر لوندره فى ٢٧ يوليه سنة ١٨٨٥ بمبلغ ٥٫٢٨٧٫٠٠٠ جنيه مصرى فى السنة

وآخيرا قبلت الدول الدائنة فى سنة ١٨٨٨ أن تكون نفقات الادارة

المصرية ٦٠٠ر٣٠٠ ر٦ جنيه مصرى فى السنة. كما تقرر كذلك أن تقسم بقية إيرادات الميزانية قسمين قسم يحفظ فى صندوق الدين والقسم الآخر مع زيادة تسعين الف جنيه يحفظ فى صندوق الحكومة المصرية

أما القسم الذى يحفظ فى صندوق الدين العام فإنه يصرف منه :

أولا ـ أرباح الدين .

ثانيا ـ استهلاك جزء منه

ثالثا ـ بقاء مليونى جنيه كرصيد للاحتياطى

جرى العمل بهذا النظام المالى الى سنة ١٩٠٤ اذ اتفقت فرنسا وانجلترا اتفاقهما الودى وسمح للحكومة المصرية أن تتصرف فى كل مالديها من المال سواء أكان فى صندوق الدين أم كان فى صندوقها الخاص مع إبقاء ٠٠٠ ر٠٥٠ ر٣ جنيه مصرى كمال احتياطى فى صندوق الدين العام

وبناء على هذا النظام المالى كان الواجب صرفه فى مدى التسع والثلاثين سنة الماضية على احتلال انجلترا لمصر هو مايأتى :

جنيه مصرى	
٠٠٠ ر ٥٦٠ ر ١٣	فى سنى ١٨٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥
٠٠٠ ر ٤٧٤ ر ١٠	« سنى ١٨٨٦ ـ ٨٧
٤٠٠ ر ٧١٧ ر ١٨٢	« الاعوام التالية من عام ١٨٨٣ الى عام ١٩١٦

جنيه مصرى	
٦٣ ر ٦ ٠٠٠ ر ٠٠٠	فى المدة من عام ١٩١٧ — الى عام سنة ١٩٢١ (ضوعفت هنا المصاريف بالنظر الى زيادة مرتبات الموظفين بسبب غلاء المعيشة)
١٥٤ ر ١٨٥ ر ٣٣٠	فى سبيل الدين العام مدة ٣٩ سنة
٠٢٥ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠	قيمة الخراج للدولة العثمانية مدة ٣٩ سنة
٠١٨ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠	قروض للسودان
٠٠٤ ر ١١٣ ر ٩٥٦	تعويضات عن خسائر الاسكندرية فى الفتنة العرابية
٤٧١ ر ٠٨٦ ر ٦٨٦	جنيه مصرى ما كان يجب صرفه

أما الايرادات فى تلك المدة فإنها كانت كما يأتى :

جنيه مصرى	
٦٠١ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠	إيرادات عادية وغير عادية فى ٣٩ سنة
٠٠٩ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠	قرض مضمون فى سنة ١٨٨٥
٠٠٧ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠	قرض ممتاز
٠٠٢ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠	المال الاحتياطى الموجود فى سنة ١٨٨٢
٦٢٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠	جنيه مصرى مجموع الايرادات فى ٣٩ سنة

قال لورد كرومر فى تقريره عن سنة ١٩٠٤ ان الادارة المصرية

أمكنها ان تتفق فى المنافع العامة فى الستعشرة سنة الماضية اى منذ سنة ١٨٨٨ مبلغ ٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ١٦ جنيه مصرى ونخربأنه مبلغ كبير لاتستطيع حكومة أخرى حالتها المالية كحالة مصر ان تقدمه لمنافعها العامة فوق نفقاتها الادارية :

وبناء على هذا لو أضفنا مبلغ ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٣٤ جنيه مصرى للمنافع العامة فى مدى أربعة وثلاثين عاما (من عام ١٨٨٨ الى عام ١٩٢١) لوجدنا أن المصروفات كان يجب ان تبلغ ما يأتى :

جنيه مصرى

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٤٧١ المصروفات المتقدمه الذكر

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٣٤ للمنافع العمومية

---

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٥٠٥ جنيه مصرى مجموع ما كان يجب انفاقه على الادارة والمنافع العامة وغيرهما فى ٣٩ سنه

واذا نحن قارنا المصروفات بالايرادات فاننا نجد ما يأتى :

جنيه مصرى

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٦٢٠ الايرادات

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٥٠٥ المصروفات

---

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١١٥ جنيه مصرى ما كان يجب بقاؤه فى خزانة المالية المصرية

من هذا البيان الموجز ترون أن المالية المصرية أغنى مالية فى العالم وتقولون معنا لماذا لم يسدد الدين العام بجزء من هذا الباقى ! ولكنه باق لا نعرف له مستقراً وانكم كذلك لا تعرفون له مثلنا أى مستقر ! اللهم الا إذا اتفقتم معنا على ان المحتلين تصرفوا فى ماليتنا على غير القاعدة الدولية الموضوعة لها وأنفقوها ذات اليمين وذات الشمال فى مشاريع قد قامت على أهوائهم دون ان ينفق منها على تربية الشعب المصرى وتعليمه جزأ من عشرة أجزاء مما تنفقه الدول المتحضرة من خزانتها العامة فى هذا السبيل على أممها وفى مقدمتها دولة انجلترا نفسها!

أفهل بمثل هذا التصرف تحمى انجلترا كما تدعى مصالح الاجانب فى مصر كما حمت من قبل مرافق الوطنيين فيها ! !

***

السودان المصرى

إن السودان المصرى الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر منذ قرون عديدة ما ثار أبدا فى وجهها بل كانت إدارة مصر تشمله فى جميع العصور وكان أهله يعيشون فى ظل الراية المصرية كاخوانهم أبناء مصر ! بيد أن السياسة البريطانية بذرت بذور دسائسها فى السودان عمدا وغدرا ! فانه فى السنين الأخيرة من حكم الخديو

اسماعيل باشا تمكنت انجلترا فى سنة ١٨٧٦ بوصف أنها دولة دائنة وذات نفوذ على الخديو من توظيف بعض أبنائها كحكام فى السودان وعلى الأخص فى الأقاليم الوسطى والعليا بحجة منع الاتجار بالرقيق وعقدت لذلك اتفاقا بينها وبين مصر فى سنة ١٨٧٧ يخولها حق تفتيش السفن المصرية فى البحر الأحمر :

عمل أولئك الحكام الانجليز على التمكين للبغضاء فى أنفس سكان السودان ضد الحكومة المصرية وإدارتها وأبناء مصر حتى أندلع لهيب الثورة فى أرجاء تلك البلاد الشاسعة قبل احتلال انجلترا لمصر واستفحلت استفحالا خسرت فيه مصر والسودان خسائر جمة سواء أكانت رجالا أم مالا وانتهى دورها الثانى بذبح الجنرال غردون ومن معه من المصريين إلا الذين طال أجلهم فاعتقلوا فى غيابات الجب عدة سنين . .

وبالنظر لاهمية السودان لدى انجلترا وأنها تبنى عليه وعلى حساب مصر مستعمرة أفريقية بريطانية كبيرة أمر ساستها الحكومة المصرية لتقرر سلخه عن مصر فى أواخر سنة ١٨٨٣ بحجة أن هذه لا تملك جيشا ولا مالا لتستعين بهما على نشر السكينة فى أرجائه !

بيد أن شريف باشا الذى كان وقتئذ رئيس الحكومة المصرية أدرك بصادق نظره مرامى انجلترا وسوء طويتها كما شعر بثقل التبعة التى تلقى على حكومته إذا هو أذعن لأوامر انجلترا فأبى الاذعان

واستقال شريفا مبينا أسباب استقالة وزارته فى كتاب قدمه للخديو وأودعه أسمى وأنبل شعور بالواجب الوطني وكتب به صفحة نفخار للوطنية المصرية وما يجب أن يتحلى به الوزراء من صفات الاقدام والأخلاص والامانة فى كل زمان ومكان ! أما ذلك الكتاب التاريخى فهذا هو نصه :

« ألحت الحكومة البريطانية فى طلب اخلائنا السودان غير أننا لا نملك حق الموافقة على ذلك الأخلاء لأن هذا القطر الذى هو ملك للأمة المصرية وتحت سيادة الباب العالى قد عهدت الينا حراسته والمحافظة عليه

« تقول لنا حكومة جلالة الملك أن الواجب على مصر العمل بنصائحها دون مناقشتها وفى هذا خرق لحرمة المرسوم الخديوى الصادر فى ٢٣ اغسطس سنة ١٨٧٨ والذى بمقتضاه يحكم الخديو مع وزرائه وبواسطتهم . لذلك نستقيل لأننا صودرنا فى نظام البلاد ومنعنا من أن نحكمها طبقا لدستورها المعمول به من سنين خلت .. »

وبعد أن استقالت الوزارة الشريفية تألفت وزارة نوبار باشا ووافقت انجلترا على ماطلبت وسلخت السودان عن مصر بمرسوم خديوى صدر فى ٨ يناير سنة ١٨٨٤ !

بعد أن مضت بضع سنين أمرت انجلترا الحكومة المصرية فجأة فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٦ بأن تقرر استرجاع السودان فى الحال

وتسيير حملة اليه ! ولعلكم تعرفون أن السبب السياسي الجوهر في هذه العجلة كان تقدم حملة الجندى الفرنسى الباسل الكابتن مرشان (الجنرال مارشان الآن) فى أعالى السودان

أذعنت الحكومة المصرية لأمر انجلترا وبذلت جهدها لاسترجاع السودان وبعد استرجاعه أمرتها انجلترا مرة أخرى بأن تعقد معها عقدا يخولها الاشتراك معها فى إدارة هذا السودان وفعلا وقع على ذلك العقد فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ كل من اللورد كرومر بوصف أنه نائب انجلترا ومعتمدها فى مصر . وبطرس غالى باشا بوصف أنه نائب الحكومة المصرية وناظر خارجيتها ! وهذا نص مواد العقد :

«المادة الأولى — تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى : اولا ـ الأراضي التى لم تخلها قط الجنود المصرية من سنة ١٨٨٣ . ثانيا ـ الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملك والحكومة المصرية بالاتحاد . ثالثا ـ الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدا

«المادة الثانية ـ يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معافى البر

والبحر بجميع أنحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط

«المادة الثالثة — تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عالى خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية

«المادة الرابعة — القانون وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شانها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والأوامر واللوائح — يجب أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة . وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى

المادة الخامسة — لا يسرى على السودان أو على جزء منه شىء من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى

تصدر من الآن فصاعدا إلا مايصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

المادة السادسة ـ المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوربيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لايشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة من الدول

المادة السابعة ـ لاتدفع رسوم الواردات الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها إلى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانى ساحل البحر الأحمر لايجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز ان تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب مايقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها فى هذا الشأن

المادة الثامنة ـ فيما عدا مدينة سواكن لاتمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

المادة التاسعة ـ يعتبر السودان بأجمعه ماعدا مدينة سواكن

تحت الاحكام العرفية وتبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من المحاكم العام

المادة العاشرة — لايجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلانات بالسودان ولا يصرح لهم بالأقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

المادة الحادية عشرة — ممنوع منعا مطلقا إدخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

المادة الثانية عشرة — قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة (بروكسل) المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها

الامضاءات

كرومر بطرس غالى

هذا هو العقد الجائر الذى اختلسته انجلترا من مصر ! فهل كانت تحصل عليه لو كان برلمان الأمة موجودا ؟ أكانت تحصل عليه قبل احتلالها مصر احتلالا جنائيا ؟

لقد اعتدت انجلترا بهذا العقد على حقوق الأمة المصرية فى السودان اعتداء لايبرره شرع ولا عدل ولا قانون دولى ! . . ألم

تدع انجلترا أنها وصية على الحكومة المصرية ترشدها فى أعمالها وتحتم عليها الأذعان لارادتها فى كل أمر من الامور السياسية أو الأدارية ؟ أفهل ننسي تلغراف لورد جرنفيل للورد كرومر عند ماطلب الخديو إلى المرحوم حسين فخري باشا بأن يؤلف وزارة فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ دون أن يأخذ فى تأليفها رأى عميد انجلترا فى مصر ؟ ألم يقصد لورد كرومر إلى سراى الخديو وأبلغه نص ذلك التلغراف وهدده وأمره بعزل هذه الوزارة ووجوب أخذ رأيه فى تشكيل كل وزارة ؟ فما هى إذاً قيمة العقد الذى يتم بين وصى وقاصر لمنفعة الوصى نفسه ؟

إن انجلترا التي ثارت ثائرتها فى عام ١٨٤٠ على أثر انتصار مصر على الدولة العثمانية كادت تثير حربا أوربية لدفاعها عن حقوق الدولة وسلطانها فى مصر ! فكيف يكون مركزها بعد أن اعتدت على تلك الحقوق باحتلالها وادى النيل ثم اغتيالها مصالح أبنائه بأشرافها وحدها على إدارته

لو لم تكن انجلترا محتلة مصر غدرا أو وصية على حكومتها أكان يمكنها أن تأمرها بالتخلى عن السودان أولا ثم الاشتراك الفعلى فى إدارته ثانيا بعد استرجاعه بدم مصر ومال مصر ؟

يزعم بعض ساسة الانجليز أن انكلترا قد دفعت اشتراكها فى إدارة السودان بأهدار دم جنودها فيه ودفعها سبعمائة ألف جنيه فى نفقات حملته ! ناسين أن انجلترا عند ما احتلت مصر صرحت بأنها

لم نحتلها إلا لتنشر السكينة فى وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه . وما كان السودان إلا جزأ لا يتجزأ من هذا الوادى الذى يتطلب نشر السكينة على ربوعه !

ألم تدفع مصر نفقات جيش الاحتلال منذ أول يوم وطئت قدمه أرضها ؟ ألا يعتبر هذا الجيش مأجورا لمصر ليعاونها على نشر السكينة فى وادى النيل من منبعه إلى مصبه ؟ وهل مبلغ السبعمائة ألف جنيه الذى دفعته انجلترا قرضا لمصر فى حملة السودان بعد أن رأت أحجام صندوق الدين العام عن دفعه وحكمت المحكمة المختلطة له على الحكومة المصرية — ثم تنزلت عنه كمساعدة لمصر على استرجاع السودان — هل يعتبر هذا المبلغ ثمنا لاشتراك انجلترا مع مصر فى إدارة قطر كبير كالسودان ؟

ألم تربح انجلترا من مصر أضعاف أضعاف هذا المبلغ فى سنى احتلالها ؟ ألم تهب مصر انجلترا فى حربها الأوربية الأخيرة مبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات وهو يعدل اكثر من أربعة أمثال هبتها فى حملة السودان ؟

تدعى انجلترا عدا ذلك أن مصر ما كانت مستمتعة بنظام نيابى عند ما تعاقدت هى وحكومتها على شركة السودان . وليس للشعب المصرى حق فى أن يعترض على هذا النظام أو يعيد النظر فيما جرى من المعاهدات بين حكومته وبين أية دولة أجنبية ! وهو ادعاء باطل لان ما يؤخذ قسرا لا يعتبره القانون عملا مشروعا !

ألم يكن لمصر برلمان قبل احتلال انجلترا لها فمن الذى ألغاه وحرم الأمة بذلك حق الاشراف على المعاهدات وعلى جميع أعمال الحكومة أليست انجلترا هى التى ألغته بغدرها وجبروتها وافتياتها على القانون الدولى ؟ وهل العقود التي تتم بعد هذا الحال بين انجلترا وحكومة مصر المشمولة بوصايتها تعتبر عقودا حائزة للصفات القانونية ؟ كلا إنه لا يوجد قاض فى العالم يحكم للص سلب الدار وهدد أصحابها العزل من السلاح بقوة السلاح ليوقعوا على عقد يقرون به عمله أن هذا العقد صحيح !

أليست قوانين العالم حتى القوانين الانجليزية متفقة على أن العقود التى يرغم موقعها على توقيعها بأية وسيلة تهديدية والتى يعقدها الوصي مع القاصر عقود باطلة لاقيمة لها ؟

كذلك حالنا مع الانجليز فى السودان فانهم احتلوا البلاد غدرا وألغوا البرلمان قسرا وعقدوا اتفاق السودان أمرا وحتما !

قام بعد الهدنة من ساسة انجلترا من يقول : « إنه لاحق للأمة المصرية فى السودان » . معللا ذلك بعلتين هذا فحواهما :

الاولى — إن مصر ماملكت أبدا السودان الذى عاش دائما بلامالك !

والثانية — إنه لا يوجد وجه شبه بين مصر والسودان

هـذا يؤلف بنفسه جنسية ممتازة عن الجنسية المصرية كل الامتياز !

وما ادعاء هؤلاء الساسة إلا احتقارا للحقيقة وللتاريخ ولحقوق الأمم على السماء ! وإلا فماذا هم قائلون فى سطور التاريخ التى أستميحكم الأذن فى تلاوتها عليكم موجزة وأنتم العالمون بها الواقفون قبل جميع الناس على حقائقها ! قال التاريخ : (١)

«السودان الكائن فى جنوب مصر موجز مصر لا يتجزأ ويؤلف معها منذ القدم أمة واحدة حكمها فى أغلب عصور التاريخ ملك واحد

« لقد وجد قدماء المؤرخين أمثال هيرودوت وخلفائه فى مباحثهم وتنقيباتهم آثارا تدل بكل وضوح على أن الجنس النوبى داخل فى تكوين الجنس المصرى .

« إن أول ملك مصري فتح النوبة هو الملك « أسركاف » أحد ملوك الأسرة الفرعونية الخامسة (٢٧٥٠ سنة قبل تاريخ المسيح)

« وغزا الملك « بپى » من ملوك الأسرة السادسة حبشا من بلاد النوبة فى عام ٢٥٩٠ قبل الميلاد وبه قهر أمراء مصر الشمالية . »

« وأخضع الملك « مرنرع » من ملوك الأسرة السادسة شطرا

(١) صفحتا ٢٦ و ٢٧ من « الحاتوا فى مصر » تأليف مدام جوليت آدم

كبيرا من بلاد النوبة وفتح سبيلا فى جندل النيل الاول (الشلال) لتعبره السفن التجارية وتمة استكشف مناجم الذهب التي أغنت مصر قاطبة . وأرسل ابن هذا الملك « بپى » الثانى تجريدة الى النوبة العليا بقيادة الأمير حرحوف الذى تم على يديه فتح جهات كسنجر !

« شيد « أوزرتاسن الأول » أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة فى سنة ٢٤٤٥ قبل الميلاد هيكلا بالقرب من وادى حلفا نقش على جداره أسماء آبائه الذى فتحوا بلاد النوبة

« واستولى الملك « أوزرتاسن الثالث » أحد ملوك هذه الأسرة على الجندل الثالث وشيد قلعتين فى جواره

وفى عام ١٨٣٠ قبل المسيح أنشأ الملك « امنمهت الثالث » مقياسا للنيل فى سمنه للوقوف على ارتفاع مياه النيل

وفى سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد نظم « تحوتمس الأول » مؤسس الأسرة الثامنة عشرة إدارة جميع أقاليم النوبة واحتك بقبائل السودان عامة . ومنذ ذلك العهد تم اختلاط المصريين بالسودانيين اختلاطا ألف منهم أمة واحدة ذات منافع مشتركة . وتصاهروا وامتزجت دماؤهم .

ولقد وطدت الأميراطورة «حتشبسوت» من براطرة الأسرة الثامنة عشرة العلائق المكينة بين مصر والسودان ومزجتهما بعضهما

بعض حتى صارا جسما واحـدا . وفتحت فتحا سلميا جميع البقاع القاصية

« وقامت هذه الأمبراطورة العظيمة بسياحة كبيرة فى جميع البقاع السودانية الغربية عام ١٤٩٠ قبل الميلاد فجذبت إليها القلوب ونشرت راية مصر على السودان نشرا تاما وأصبح المصرى يعتقد أن السودانى أخوه وكذلك السودانى اعتقد عين الاعتقاد

« وعند ما آبت الامبراطورة « حتشبسوت » من سياحتها الطويلة جاءها رؤساء القبائل السودانية من كل صوب ليؤدوا لعرش مصر فى شخصها الامبراطورى التحية وأكيد الولاء وليقدموا لها الهدايا الجميلة القيمة برهانا على أخلاصهم ووفائهم .

« واستطاعت هذه الامبراطورة مدة حكمها الذى بلغ عشرين سنة أن تبسط نفوذها على بلاد الحبشة وتستولى على السودان الشرقى كذلك

« وفى عهد الامبراطور « أمنحتب الثالث » عند ما نزعت الحبشة إلى الثورة والانفصال عن مصر جردت هذه جيشا عبر نهر النيل الأزرق وأخضع الحبشة بأسرها لسلطان أمبراطور مصر وعاشت تحت حمايتها

« ومنذ ذلك العهد البعيد سواء أكان فى عصر العجم أم اليونان . فى حكم اليطالسة أم الرمان أم العرب أم الترك . كان السودان كذلك

جزأ لا يتجزأ من مصر جنسا وعصبية وجسما وروحا حتى أن الضباط الفرنسيين عندما تتبعوا المماليك فى تجريدة نابوليون بونابرت وجدوهم قد توغلوا فى بلاد النوبة باعتبار أنها جزء من مصر .

« لما ارتقى محمد على عرش مصر فى سنة ١٨٠٥ وأخذ ينظم البلاد المصرية بمعاونة فرنسا رأى أن السودان الذى هو جزء من مصر قد أهمله من كانوا قبله من الحكام بالنظر لكثرة الثورات الداخلية فى عهد دول المماليك وأنه فى حاجة إلى أن تمشى عليه نظم مصر ليكون سعيدا بسعادتها وفير الخيرات بأدراتها . وأرسل ابنه أسماعيل فى سنة ١٨١٢ إلى أعالى النيل ليضع له نظم الادارة فوصل إلى سنار ثم قتل محروقا . . .

سافر « محمد على » والى مصر ونجلاه « ابراهيم وسعيد » على التوالى الى السودان وأجروا فيه عدة اصطلاحات . كذلك اخاه اسماعيل ذلك المصلح الكبير بالرغم من ديونه الجسيمة فانه اتخذ من مدينة الخرطوم عاصمة ثالثة لوادى النيل وبعث إلى السودان اليعوث الحربية من ضباط أركان الحرب المصريين المتفوقين يوم كان ابنه الامير حسين كامل وزيرا للحربية المصرية . أولئك الضباط النجباء الذين جابوا فيافى السودان سهله وجبله ووضعوا له الخرائط مفصلة وضموا المجهول منه من قبل لاسيما الأقاليم العليا إلى المعمور العائش هو ومصر منذ قرون عديدة تحت ظل الراية المصرية

أنشأ اسماعيل فى السودان دور الصناعات المختلفة ووضع الآلات الحديثة على جانبى النيل من أقصاه إلى أقصاه . . . . »

هذا ما أثبته التاريخ واعتمد عليه مؤرخو الغرب فى كتاباتهم .

***

على أنه بالرغم من سوء نية ساسة بريطانيا العظمى وقلبهم الحقائق فإن رجال حكومتهم فى جميع أدوار التاريخ الحديث لم ينكروا امتلاك مصر للسودان وأن ملك مصر هو ملك السودان

فقد قال لورد جرنفيل وزير خارجية انجلترا بأعلى صوته فى مجلس العموم فى الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٨٤ وكان ذلك على أثر مرسوم الخديو بترك السودان مؤقتا ما نصه :

« إنه لمستحيل أن يقبل أن السودان الذى هو ملك شرعى لمصر لا يكون تحت سيادة الباب العالى . . »

وقال سير جمس فرغوسن وكيل الخارجية البريطانية فى مجلس العموم فى ٥ مارس سنة ١٨٩١ : « لا ينكر أحد ان السودان ملك مصر وأن تخليها عنه مؤقتا لا يزيل بأى حال هذه الملكية . وأن سيادة الباب العالى على السودان بالتبعية لسيادته على مصر لا تزال قائمة . وقد أرسل إلينا الباب العالى تصريحا رسميا فى هذا الشأن . »

وفى معاهدة برلين بعد الهدنة بين الروس والترك فى عام ١٨٧٨ وهى التى وقعت عليها انجلترا ممثول كثيرة . توجد فقرة هذا نصها:

« إن شرائط هذه المعاهدة الدولية لا يمكن تطبيقها على أملاك الباب العالى فى أفريقيا ولا على البلاد التى هى سيدتها فيها وكل احتلال لأى بلد من تلك البلاد لا يقبل ويعتبر باطلا من جميع الوجوه (١) وأن الذى النيل لا يعبر أراضى عدة دول لا يمكن مقارنته بنهر الكونغو أو نهر النيجر . . »

وبناء على ذلك فان النيل الذى لم يجر إلا فى مملكة واحدة فأن واديه من منبعه إلى مصبه لا يكون إلا ملكا مشروعا لمصر وحدها. وكل احتلال لاى شطر منها يعتبر اعتداء صريحا على المعاهدات الدولية ويجب جلاؤه بقوة الحق والشرع . (٢) »

وبالنظر لخطورة مسئلة فاشودة بين انجلترا وفرنسا أكد لورد سلسبرى رئيس الوزارة الانجليزية لسفير فرنسا فى حديث جرى بينهما ونشر فى الكتاب الأصفر بما نصه :

« لقد اعتمدت وأعتمد بصفة قاطعة على الحقيقة القائلة بأن وادى النيل كان وما زال ويكون ملك مصر على الدوام .. »

وفى المجادلات التى دارت بين فرنسا وأنجلترا فى شأن فاشودة رأى ساسة انجلترا أن يحجوا فرنسا بأقوالها السالفة فى شأن مصر وسودانها فاعتمدوا فى مجادلتها على ما نصه :

---

(١) البروتوكول رقم ٣

(٢) مصر والسودان لجول كوشري صفحه ٣٧٨

إننا نحن الانجليز لكى نؤيد حقوق مصر التي لا تنازع فى ان السودان ملكها يكفينا أن نذكر كلمات الحكومة الفرنسية فى هذه السنين الأخيرة . . فقد قالت فرنسا ماهو مسجل فى صحف المخابرات السياسية : « إنى مستعدة لأن أرد إلى مصر كل ما يدخل فى أراضيها المحدودة من قبل » لذلك فأننا اليوم (أى الانجليز) نسترد باسم مصر هذا المبدأ الذى أذعنا له ونلح بوجوب إعادة أراضيها إليها . . . »

إن هذه اللهجة التي استخدمها الانكليز إزاء فرنسا لما احتلت فاشودة هى عين اللهجة التى يستعملها المصريون اليوم مع الانجليز قائلين لهم إن أرض مصر التى ردتها فرنسا إليها بعد احتلالها بجنودها يجب أن ترديها إلى مصر نفسها بخروجك منها جندا وإدارة !

أجل . إن وادى النيل بسائر أجزائه ملك مصر منذ خمسين قرنا من الزمان وليست انجلترا فى السودان إلا غاصبة حقاً لا يصح التنازع فيه ويجب عليها أن تذعن لندائنا الشرعى كما أذعنت لندائها باسمنا حكومة فرنسا

إن مصر منذ استرجاعها السودان أى منذ سنة ١٨٩٩ تقدم له الجيش والمال فهل بلد يضحى بدمه وماله ليعين بلدا آخر مثل انجلترا على الانتفاع بتضحياته ؟ وهل يعقل كذلك أن بلدا تعلن انجلترا على ملا العالم أنه مستقل ذو سيادة لا يكون كفأ لأن يدير وحده السودان ؟

ما كفت الأمة المصرية ولا تكف عن الاحتجاج على عقد شركة السودان كما حل تاريخ ١٩ يناير المشؤوم من كل عام . ذلك لأنها تعرف أهميته الجسيمة من حياتها وأنها المالكة الوحيدة له كما تملك القاهرة . فلا مرسوم إخلائه في سنة ١٨٨٤ ولا العقد الجنائي في سنة ١٨٩٩ ولا التصريحات الانجليزية الزائفة بل ولا القوة الغشوم نفسها. لاشيء من هذا الباطل كله يثبت أن السودان انفصم عن مصر أو أن لانجلترا فيه مركزاً شرعيا بل على الضد يثبت أن مركزها فيه مركز الغاصب المنتهك لحرمة الحق :

إن مصر لا تقوى على رؤية السودان مبتوراً من جسمها والسودان لا يمكن ان ينفصل عنها ! إنهما يؤلفان معا بلداً واحدا منافعهما فيه مشتركة وعناصرهما الحيوية واحدة . فأن كيان مصر والسودان لا تقوم له قائمة إلا إذا اشتركت منافعهما وتمت وحدتهما

***

لقد قام ساسة الانجليز بعد أن وضعت الحرب الاخيرة أوزارها بمناورة سياسية في السودان فأوفدوا وفداً من بعض المدعين أنهم يمثلون أبناءه الى لوندرة ليطلبوا من حكومتها الاعتراف بجنسية السودانيين وأن السودان يجب أن يقوم بنفسه بوصف أنه بلد ذو عادات خاصة به وله منافع ممتازة . . وقد بثت جميع السلطات السياسية البريطانية لذلك الوفد مع أنه قائم بأمرها متحرك بإشارتها

مزود بكل كلمة منها مالئ جيوبه من مال مصر الذي بهوحده يدير الانجليز السودان ! فوفد لباسه ودمه وكيانه من مصر قد تحرك بأمر الانجليز لمحاربة مصر والسودان معا ! ولكن أبناء وادى النيل مصريين كانوا أوسودانيين قدأنزلوا اللعنة على ذلك الوفدالبريطانى وسخطوا على أعضائه كل السخط أولئك الذين صاروا فى كل مكان موضع السخرية والازراء

وكذلك فى بدء هذا العام سافر اللورد اللنبي عميد انجلترا فى مصر الى السودان وقام بحركة سياسية هاجت لها الأمة المصرية وعلى الأخص فى وقت كانت تهيئ فيه الحكومة المصرية دستور البلاد وكان من المحتم وصف حدودها فيه ومن بينها حدود السودان . كما هو الحال فى جميع دساتير العالم المتمدين

احتجت الأمة بأسرها على الألاعيب الانجليزية فى السودان ولأدلكم على شدة تعلقها بمصدر حياتها أقرأ عليكم الكتاب القيم الذى أرسله حضرة صاحب السمو الأمير المصرى الجليل عمر طوسون لرئيس لجنة الدستور حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا وهذا هو نصه !

« حضرة صاحب الدولة رئيس لجنة الدستور

« ان لجنة الدستور التى ترأسونها يجب أن يكون عملها مطابقا لرغبات الأمة . ومسئلة السودان من المسائل الشاغلة للرأى العام المصرى وكان الواجب على الوزارة الحاضرة أن تحصل على الاعتراف

ببطلان اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ وتجعل هذه المسئلة من الشروط الاساسية التي لايمكن تشكيل الوزارة قبل البت فيها . ولكن اذا كان هذا قد فات الوزارة مع مزيد الأسف فلا يصح أن يفوت دولتكم وحضرات إخوانكم أعضاء لجنة الدستور . لذلك أذكر دولتكم بوجوب اعتبار السودان ضمن حدود البلاد كما كان قبل الاحتلال ووجوب تشكيل مجلس نوابنا من المصريين والسودانيين على حد سواء حتى يجلس اخواننا سكان السودان المصرى مع زملائهم نواب سكان الوجهين البحرى والقبلي ويعمل الجميع للمصلحة المشتركة التى لا انفصام لها أبداً واقبلوا فائق احترامى « عمر طوسون »

وقد احتجت كذلك جماعة الشبان السودانية على هذا الافتئات البريطانى لدى ملك مصر ولدى وزيره الاول ولدى ممثلي الدول ولدى الصحف مجاهرة بأن السودانى الذى يقبل الادارة الانجليزية أو المصرى الذى يتخلى عن السودان بأرادته ليسا الا خائنين لوطن واحد مؤلفة قلوب أبنائه من قديم الأزل

هذا وأن الكثيرين منكم ـ أيها السادة ـ قد شهد قبيل الصيف الماضى احتجاجات المصريين القاطنين بأوربا وقد تفضل صديقنا مسيو أولار المؤرخ العظيم وأبان لكم أهمية السودان من مصر وحاجة هذه اليه . . .

وكذلك فأن جميع الاوربيين القاطنين بمصر يتساءلون معنا ازاء

هذه التعقيدات التى تخلقها انجلترا فى كل لحظة ـ كيف يتسنى لمصر أن تعيش بدون السودان وكيف يكون لانجلترا فيه وهى لم تحتله الا لأنها محتلة مصر ـ حق مشروع فى الوقت الذي أعلنت استقلال مصر كبلد ذى سيادة ؟

ولا بدأن تكونوا جميعا بعد هذا البيان مقتنعين أنه من المستحيل أن تنزل الامة المصرية عن سودانها الذى هو ألزم لها من أى بلد آخر اذ أنه صلب حياتها ! ومستحيل أن يفصل السودان عن جسم الوطن الاصلي ! بل ومستحيل أن تجد انجلترا فى السودان أى حق !

قناة السويس

تاق العالم من زمن بعيد الى حفر قناة بحرية تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وقد تم هذا العمل الكبير فى سنة ١٨٦٩ بفضل الهمة التي بذلها مسيو فرديناند دى لسيس والجهود التي بذلتها مصر وضحت فى سبيلها بالمال الوفير والنفر الكثير

منحت مصر شركة دولية امتياز هذه القناة مدة ٩٩ سنة ابتدأت من سنة ١٨٧٠ وتنتهى فى سنة ١٩٦٨

ولما كانت مسئلة هذه القناة من أهم المسائل الكونية أدركت جميع الدول هذه الاهمية وعملت على صيانتها من عبث المطامع الدولية حتى يكون مرور السفن فيها بلا استثناء مضمونا فى كل وقت فاجتمع فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨ بالاستانة العلية مندوبو إحدى عشرة

دولة هى الدولة العثمانية . وروسيا . وفرنسا . وايطاليا . وانجلترا . واسبانيا . وهولاندا . وألمانيا والنمسا . والمجر . ودوقية لوكسمبورج ووقعن على اتفاق دولى بلغت مواده سبع عشرة مادة بينها ثلاث مواد خاصة بحيدة القناة وحق الدفاع عنها وخولت مصر هذا الحق قبل أى بلد آخر فى المواد الثامنة والتاسعة والعاشرة وهذا نصها :

« المادة الثامنة ـ الوكلاء الممثلون فى مصر للدول الموقعة على هذه المعاهدة مكلفون السهر على تنفيذها . وفى أى ظرف تتهدد سلامة أو حرية المرور فى القناة يجتمع هؤلاء الوكلاء بناء على دعوة ثلاثة منهم تحت رئاسة أقدمهم ليبينوا للحكومة الخديوية الخطر الذى يكونون قد وقفوا عليه حتى تتخذ الاحتياطات الخاصة المؤكدة لحماية القناة . . .

« وعلى كل حال فعليهم أن يجتمعوا مرة فى كل عام ليتأكدوا من أن تنفيذ هذه المعاهدة مرعى بكل دقة وتكون هذه الاجتماعات تحت رئاسة مندوب خاص تعينه لهذا الغرض الحكومة العثمانية ويمكن لمندوب من الحكومة الخديوية أن يشترك فى هذا الاجتماع ويرأسه فى حالة تغيب المندوب العثمانى . . .

« ولهم أن يطلبوا بصفة خاصة وجوب ازالة أى عمل وتشتيت أى تجمع ينجم عن وجودهما على إحدى حافتى القناة أى ضرر لسلامة القناة نفسها أو لحرية الملاحة فيها

« المادة التاسعة » — تتخذ الحكومة الخديوية الاحتياطات اللازمة فى حدود سلطتها التى خولتها اياها الفرمانات السلطانية والتى نصت عليها هذه المعاهدة للقيام بتنفيذ المعاهدة التى نحن فى صددها

« وفى حالة عدم وجود الوسائل الكافية لهذا التنفيذ لدى الحكومة المصرية يجب عليها أن تستنجد بالحكومة الامبراطورية العثمانية التي تتخذ من جهتها فى الحال الوسائل اللازمة لتلافى الخطر مع تبليغها الحكومات التى أمضت تصريح لوندرة المؤرخ فى ١٧ مارس سنة ١٨٨٥ وعند الحاجة يمكنها أن تتفق معهن على هذا الشأن ولا تقف أحكام المواد ٤و٥و٧و٨ من هذه المعاهدة عائقاً فى سبيل الاحتياطات التى نصت هذه المادة على اتخاذها

« المادة العاشرة » — كذلك لا تعوق أحكام المواد ٤و٥و٧و٨ الاحتياطات التى يمكن أن يتخذها كل من جلالة السلطان وسمو الخديو باسم جلالته وفى حدود الفرمانات للدفاع عن مصر أو لتأييد النظام العام

« وفى حالة ما إذا وجد جلالة السلطان أو سمو الخديو نفسهما مضطرين للعمل بما ورد من هذه الاستثناءات فى هذه المادة فأن الحكومة العثمانية تشعر بذلك الدول الموقعة على تصريح لوندرة

« ومن المتفق عليه كذلك أن أحكام أربع المواد المذكورة لا يمكن أن ينجم عنها أى مانع فى سبيل الاحتياطات التى ترى

الحكومة العثمانية اتخاذها ضرورياً للدفاع بقواها الخاصة عن أملاكها الكائنة على الشاطىء الشرقى من البحر الابيض المتوسط »

فمصر المالكة للقناة هى الحارسة الاولى لها بحكم حقها ومركزها واذا كانت مصر هذه مرتبطة من جهة أخرى بمصالح عديدة دولية لمركزها الطبيعى فأن مسئلة دوليتها تكون ظاهرة للعيان غير محتاجة إلى برهان . .

وهذه الدولية للمسئلة المصرية لا يمكن التغلب عليها أو محوها بهوى بعض الساسة الذاتى أو بأطماع بعض الدول الشرهة . . لانه من المستحيل أن يفصل حظ مصر من حظ هذه القناة وعلى العكس وما السيد على مصر أو على القناة إلا سيد على الاثنين معاً . لان القناة لا تحمى حماية فعلية الا إذا كان وادى النيل المرتكزة عليه هو الحامى لها وعلى الاخص منطقة الدلتا . .

وأنه اذا كانت قناة السويس على هذه الاهمية تجاه جميع الدول فانها لاشك تكون أكبر أهمية إذا نظرنا بعين الاعتبار الى مصالح دول البحر الابيض المتوسط تلك التى يجب عليها الا تتهاون فيها وان تضع حداً لها بحرية الامة المصرية وضمان استقلال بلادها الفعلى ضماناً أكيداً . .

نعم ان الدول جميعاً تجدن من مصر المستقلة استقلالا فعليا حكومة برلمانية يقظة ساهرة على تنفيذ المعاهدات الدولية وفى مقدمتها

حراسة هذا الممر البحرى . ممر القناة وحمايته من كل اعتداء يصوب اليه . ويصبح العالم بأسره مطمئناً عليه من شر الطوارىء المفاجئة والحوادث التى فى عالم الغيب

لذلك طالبنا على الدوام لاهمية مركز بلادنا وعلى الاخص من وجهة القناة ومنفعتها العامة أن تعمل الدول باتحاد لسلامة وادى النيل من أى احتلال أو حماية أو سيادة أية دولة من الدول حتى لاتكون حقوق مصر واستقلالها ومصالح الدول فى القناة مهددة فى كل حرب تقع حولها . وها نحن أولاء قد رأينا كيف ان اعتداء انجلترا على القناة بانتهاك حرمتها الدولية واستخفافها بحيدتها قد جر على مصر البلايا وأوقعها فريسة الاحتلال البريطانى! ورأينا كذلك كيف أن انجلترا اتخذت فى الحرب الاخيرة من القناة عدة دفاع وعرضت مصر نفسها لاجسم الاخطار بل وميزت نفسها على جميع الدول وجعلت لسفنها أفضلية العبور على غيرها من سفن الدول الاخرى!

يقول ساسة انجلترا ان ماعملوه فى هذه الحرب إزاء القناة كان فى مصلحة جميع الحلفاء على السواء وأنه لولا وجود الاحتلال البريطانى فى مصر لعبث بهذه القناة يد الاهواء ولخسر الحلفاء كل شيء يقولون ذلك ليبرروا أعمالهم فى مصر وليكسبوا جانب الحلفاء وقد نسوا أن المسئلة قبل كل اعتبار مسئلة مبدأ دولى عام ! على أنه لا يبعد أن يكون حلفاء اليوم خصماء الغد ودوام الحال من المحال . .

ألا إن أنانية بريطانيا العظمى لظاهرة وهى أنها لا تريد الا أن تكون مفاتيح البحار فى يدها الامر الذى لا يستوى ومنافع العالم الدولية فيها . فالبحار ليست ملكا لدولة دون دولة والقول بأن الدولة التى تكون أقوى الدول بحراً يجب أن تكون كذلك سيدة العالم بحراً لقول مرتكز على القوة دون الحق والعدل والشرع ! بل على الشره الذى من واجب العالم كله أن يتخلص منه بوضع حد له . وهذا لا يكون الا بمؤتمر دولى منزه عن العواطف الذاتية والميول الشخصية لينظر فى مسئلة القناة ومسألة مصر ويحقق بقرره العادلة ما يصون القناة من أى خطر وما يصون استقلال وادى النيل من أي اعتداء

ان مصر لم تقم بحفر القناة وقد ضحت فى سبيلها بالمال الوفير والنفر الكثير إلا لتسعد وتسعد العالم معها . فاذا كانت الدول التي استفادت منها اقتصادياً حتى اليوم وتستفيد منها فى مستقبل الايام تهمل أمرها هازئة بمنافعها لتكون مصدر شقاء لابناء وادى النيل فاننا نفضل محوها من الوجود ولنا العذر فى ذلك حتى نعيش موفورى الكرامة بعيدين عن نزق انجلترا وشرهها ... آمنين شرها وعسفها ..

لقد عنيت الدول كل العناية ببواغيز الدردنيل وهى تناقش الآن فى مؤتمر لوزان مسئلتها لتضع لامرها حداً لا يكون من ورائه غنم لدولة دون الاخرى

فلماذا لا تعنى كذلك بمسئلة قناة السويس التى لامشاحة فى أنها

أكبر أهمية كونيـة من تلك البواغيز ؟ ذلك لان المشرف على البواغيز هى تركيا والمشرفة على قناة السويس هى انجلترا والساسة الذين نراهم يزأرون باسم العدل الموهوم فى وجه ساسة تركيا لا نراهم إلا صامتين وفى سبات عميق اذا كان ذاك العدل وهذا الحق قد هضمتهما انجلترا !

الا إن الصراحة لخير السبل فى تقرير الحقائق . فالمسئلة المطروحة أمامكم اليوم مسألة حياة أو موت للعالم عامة ولمصر خاصة . وها هى المسئلة الشرقية قد وجدت على بساط البحث فى مؤتمر لوزان وليست مسئلة مصر إلا من أهمها إن لم تكن فى مقدمتها . .

إنه باعتبار أن معاهدة سيفر لا أثر لها اليوم فضلا عن أنها بأى حال لا تؤثر فى مركز مصر من وجهة استقلالها التام حتى لو كانت لها قوة المعاهـدات . فان الدولة العلية لا تزال حتى الساعة من وجهـة القانون الدولى صاحبة السيادة على مصر وان المعاهدات التى تربطهـا بها من الوجهة الدولية تربطها كذلك بكثير من الدول . فماذا يكون الحال عند ما ترفع هذه السيادة عن مصر فى مؤتمر لوزان وفقاً لارادة الامة المصرية التى أعلنت على أثر الهدنة استقلالها التام وطبقاً لميثاق حكومة أنقرة الملى ؟ أتبقى المسائل الدولية المشتركة فى مصر وعلى الاخص مسئلة قناة السويس معلقة دون حل يريح مصر ويطمئن الدول جميعاً على مستقبل القناة ؟ كلا فأن واجب الساسة العاملين بأخلاص لامهم ولاحترام عهود حكوماتهم أن يتحملوا بالشجاعة الادبيـة

منتهزين فرصة التئام هذا المؤتمر ليطلبوا من الحكومة المصرية أن تبعث بمن يمثلها فيه ويلحوا على انجلترا فى فتح باب المسئلة المصرية وحلها بما يوافق مصلحة مصر نفسها ومصالح الدول المشتركة فى قناة السويس!

ان العدل والانصاف والقانون الدولى كلها تحتم أن تمثل مصر فى مؤتمر ينظر فى مسائل الشرق عامة ومسائل تركيا خاصة لتدافع عن حقوقها ومقدرتها الدولية حتى تظفر بالعدل المنشود وتعيش مع العالم فى سلام!

***

إن فى يد الدول عقدا قد حاز الصفة القانونية من أربع وثلاثين عاما هو عقد حيدة القناة وليس عسيراً على إحداها ان تطلب باسم المنفعة المشتركة من بقية الدول أن تعيد النظر فيه وعلى الأخص بعد زوال سيادة الدولة العثمانية عن مصر

ان الدول اذا تركت مسئلة القناة معلقة ولم تبت فيها عاجلا وبقيت انجلترا محتلة مصر فأن الست والاربعين سنة الباقية من امتياز شركة القناة تنتهى كذلك وتكون انجلترا نفسها حجر عثرة فى تجديده لأن من نفعها أن تكون مصر المحتلة بجنودها هى المتصرفة وحدها فى أمر هذه القناة وثم تكون الطامة الكبرى على جميع المنافع الدولية الحربية والاقتصادية فى البحرين الاحمر والابيض المتوسط!..

لقد قرر جميع علماء الاقتصاد وأساتذة القانون الدولى أن وجود دولة قوية فى مصر مهدد لقناة السويس التى فيها أكبر منفعة دولية واتفقوا جميعاً لحل أمرها ان يكون وادي النيل مستقلا استقلالا تاماً وأن تكون الحامية للقناة المسئولة عن صيانه ممرها من أى عطب أو أي مانع هى مصر نفسها !

ولقد اقترح الحزب الوطنى المصرى فى المؤتمر السياسى الذى عقده بمدينة بروكسل سنة ١٩١٠ أنه اذا ضمنت الدول جمعاء استقلال وادى النيل من أقصاه الى أقصاه ضماناً يحتم عليها الاشتراك مع أمته فى دفع اى اعتداء تصوبه أية دولة اليه فان مصر تقدم المرور فى القناة كهبة منها لجميع سفن العالم على السواء

وانى لا أشك فى أن الامة المصرية تقبل تنفيذ هذا الاقتراح لادراكها استقلالها بالرغم مما تكابده من الخسائر المالية الجسيمة فى هذه السبيل .

لقد لامنا بعض الساسة على رفضنا طلب شركة القناة مد أمد امتيازها ٤٠ عاماً فى سنة ١٩١٠ وقالوا لنا : انكم لو كنتم قبلتم مد الامتياز وسمحتم بذلك للشركة أن توسع القناة وتعمقها لامنتم انجلترا برجه خاص على أقرب طريق إلى هندها ولجلت اليوم جنودها عن واديكم ! ولكن هؤلاء الساسة عادوا ووافقونا على ذلك الرفض لما سمعوا دفعنا للومهم .وما كان جوابنا الا أننا رفضنا لعلمنا أن الدول

كلما رأت أن أمد امتياز الشركة طويل أهملت أمر مصر باطمئنانها على القناة . بيد أنها لا يبدأ بالها كلما رأته قريبا من النهاية واحتلال انجلترا لمصر باقياً !

أجل . أن مسئلة مد الامتياز ليست هى السبب فى الرفض ولكن احتلال انجلترا لمصر هو السبب الجوهرى فيه . ولو انجلت انجلترا غداً عن مصر وأصبح وادى النيل مستقلا استقلالا فعلياً فان هذه لا تتردد ابداً فى اقرار كل ما ينفع العالم بشرط ألا يمس استقلالها بسوء .

لوزان فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ (علي فهمى كامل)

وأما كتاب الاحتجاج فهذا نصه :

الاحتجاج على الاحتلال

نشرت جريدة الاخبار الغراء بعددها الصادر فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣ بهذا العنوان ما نصه :

« أنبأتنا التلغرافات العمومية والخصوصية بأن حضرة صاحب السعادة وطنينا الجليل على بك فهمى كامل أرسل مكتوبا الى جناب رئيس الوزارة الانجليزية فى يوم ١٤ سبتمبر الجارى الذى فى مثله من عام ١٨٨٢ احتلت انجلترا مصر — كما أرسل صورته الى جميع

رؤساء الحكومات المتحضرة والبرلمانات وكبريات الصحف التى نشرته وعلق عليه أكثرها بحق مصر الصراح فى الحرية والاستقلال. وهذا تعريب المكتوب :

باريس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٣

جناب رئيس الوزارة الانجليزية

إذا ذكر التاريخ يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ذلك الذى احتلت فيه انجلترا مصر بلا مسوغ شرعى انما يذكر صحيفة مؤلمة. صحيفة الغدر واعتداء القوة على الحق المقدس الامر الذى لا يشرف بأى حال بريطانيا العظمى

لم تغز انجلترا مصر فى حرب شرعية بقوة السلاح ولكنها احتلتها مدعية أنها دولة صديقة وفية لا تريد باحتلالها الا معاونة الخديو على نشر السكينة فى البلاد عقب نشوب الثورة العرابية ثم تنجلى عنها !

ولقد صرحت الحكومات البريطانية واحدة بعد واحدة منذ ذلك التاريخ — على مسمع العالم بأسره — بأنها لا تضمر لمصر سوءاً وأن يوم الجلاء قريب لا شك فيه ! بيد أن عمر الاحتلال المشؤوم قد بلغ اليوم احدى وأربعين سنة نشأ فيها جيلان قويان دون أن تفى انجلترا بوعودها وأقسامها ! !

واذا كانت انجلترا قد رأت فى مخابرات دورموند ولف ان الجلاء

ممكن وحددت له سنة ١٨٩٠ . أفلا يكون اليوم أكثر امكانا لاستوائه والشرف البريطانى ولتأييده حق الامة المصرية الذى لا ينكر

ان انجلترا عند ما احتلت مصر لم تدع أصلا أن لها عليها حقاً يخولها احتلالها أو أن لها فيها صوالح خاصة أو منافع ممتازة !! بيد أنها بعد احتلال دام ٣٩ سنة أذاعت فى العالمين تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه اعترفت علانية بأن حمايتها الباطلة زالت من قاموس سياستها وأصبحت مصر مستقلة بحكومة ذات سيادة ! كما ادعت فى جانب هذا الاعتراف الصريح بأن لها فى وادى النيل منافع ممتازة وصوالح خاصة معلقة بالمفاوضات

فهل لنا أن نسأل جنابكم أمام العالم عامة والامة الانجليزية خاصة.. متى ومن أين حصلت انجلترا على ما ادعته لنفسها من امتيازات خاصة وحقوق مزعومة

ان الحقوق التى ترتبها أمة على أمة أخرى — كما يعلم جنابكم — لا تكون الا نتيجة حرب مشروعة قهرتها فيها أو تكون بارادة هذه الامة اذا نزلت من تلقاء نفسها عن حقوقها ! فهل ثمة أمر من الامرين يبرر ادعاء انجلترا هذا ؟ كلا لم تقم بيننا حرب ولم ننزل لانجلترا عن أى حق من حقوقنا !

ألا إن صوالح الدول فى وادى النيل متساوية من الوجهة الدولية وليس لواحدة منهن أن تدعى لنفسها بأن لها فيه ما ليس للاخرى سواء

أكان الأمر خاصا بقناة السويس أم كان خاصا بالامتيازات ؟ اللهم الا اذا كانت شريعة انجلترا تقضى بأن اعتداء الجانى ينيل حقوقا من المجنى عليه !

ان العالم كله ينظر اليوم الى القضية المصرية بعين الدهشة والحيرة لانه بينما يرى انجلترا تمضي فى احتلال وادى النيل منذ واحد وأربعين عاما يراها فى آن واحد تنادى بالويل والثبور مستصرخة الكون برمته مهددة متوعدة مدعية أنها مثال العدل الانسانى إذا ما اعتدت دولة على كيان دولة أخرى باحتلال أرضها سواء أكان الاحتلال مشروعا أم كان غير مشروع وما حوادث الرور وكورفو وغيرهما ببعيد !

والاغرب من هذا أن حكومة انجلترا تنصح للامتين المصرية والانجليزية بالاتفاق وتتظاهر أمام الملأ قاطبة بأنها تعمل له بكل اخلاص ! وما أساس الاتفاق الذى تريده الا تضحية انجلترا بشرفها بالقضاء على عهودها ومواثيقها وأيمانها ! وتضحية مصر باستقلالها بقبولها عار الاحتلال الابدى وسلطان انجلترا الخافض المذل ؟ فهل ثمة اهانة للأمتين تكون أشنع وأبشع وأرذل وأنكى من هذه الاهانة؟ وأى احترام ياجناب الرئيس لاتفاق أساسه الخيانة الجلية ؟

« اننا ياجناب الرئيس مسلوبون والانجليز هم السالبون فلا »
« سبيل لأحلال الوئام بين البلدين محل الخصام إلا إذا ردت انجلترا »

« الى مصر حقوقها رداً فعليا كاملا غير منقوص وبرهنت على »
« اخلاصها بجلاء جنودها عنها »

إننا نسترد حقاً مقدسا حق الوجود والشرف والحياة والانجليز هم الغاصبون لهذا الحق فالاتفاق بينهم وبيننا مستحيل مادامو امتعنتين غاصبين محتلين !

إننا أمة لاتهاب غير الحق ولا تبغى بالمطالبة به عوجا فلا الباطل قوى ماقوى بمغير عقيدتها ولا الشدائد تخيفها ولا الارعاد يرعبها... كلا . انها على الضد . فكلما اشتدت الازمة ونال الأذى الجائر منها ما نال اشتدت عزيمتها واستمسكت بحقها . عالمة ان الكوارث محك ارادة الامم !

ألم تروا الى الامة المصرية بعد أن نزل عليها من سماء العسف البريطانى ما نزل كيف تجلى للملأ صبرها وثباتها، وهى باسمة للحوادث تنظر الى المستقبل بعين الواثق ثقة لاتتزعزع من ادراك حريته كاملة واستقلال بلاده تاماً !

أجل . ألم تقو المظالم الانجليزية فى وادى النيل روح المعارضة وسيال الوطنية ؟ ألم يعترف الكثيرون من ساسة انجلترا وكبار كتابها حتى الذين كانوا أعداء مصر وحملوا عليها حملات شعواء من قبل بأنه كان من شأن هذه المظالم أن عملت فى بناء قوميتها أكثر مما عملته جهود زعمائها المؤمنين وأبنائها الصادقين ؟

ألا إن الحقيقة لواضحة . ذلك أن شعباً مجيداً كالشعب المصرى يعتبر نفسه بحق من سلالة أقدم الشعوب حضارة وعظمة لمحال أن يسكن اليأس قلوب أبنائه أو يصدهم أى افتئات عن سبيل المطالبة بحقهم . ماضين فيها مذللين الصعاب حتى يبلغوا الاستقلال الفعلى المنشود

فلانجلترا « الحرة ! » الخيار بين الانصياع للحق بإرادتها فتجلى جنودها عن وادى النيل لتنجى شرفها ولتكسب مودة أمة شريفة وفية . وبين ما تخبئه لها الايام وما التاريخ الاحوادث وعبر

هذا وليتفضل جنابكم بقبول احتراماتنا ؟

على فهمى كامل
الوكيل الاول للحزب الوطنى

لقد نظم المحتفل به اللجنة المصرية بأوربا تنظيما تاما ووثق عرى الصداقة بينها وبين ساسة ممالك عدة وأنه فضلا عن اشتغاله بالأعمال السياسية العامة اشتغل كذلك بالمسائل الاقتصادية والقانونية والتاريخية وكتب فيها الرسالات الممتعة التى نشرتها أشهر مجلات العالم المتحضر مثل النوفيل ريفو والريفو كونتمبورين والاوكسيدان والانترنسيونال وغيرها . وألف رسالة فى التشريع المصرى منذ

القدم وقد وصفتها الغازت دى تريبونو وصفا مشرفا لجميع المصريين

ومما نذكره هنا بمزيد الأعجاب والعطف على زعيمنا الأجل تلك الحادثة التى ألمت لها مصر بأسرها . حادث إغمائه بينما كان يخطب صفوة صحفيي العالم المتحضر فى المسئلة المصرية بمدينة باريس فى الثالث والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٢ . والتى خيف على حياته بسببها . فأنه ما أبل من مرضه ضعيفا هزيلا حتى كان مؤتمر جنوه منعقدا فلم ير بدا من انتهاز هذه الفرصة شأن الوطنى المتفانى فى حب بلاده وسافر إلى مقر المؤتمر وقدم تلك المذكرة الفائضة التى نشرتها المجلات والصحف فى العالم المتمدين كما نشرت تعريبها الصحف المصرية وأعجبت بها الأمة كل الاعجاب

وأنه بالرغم من النصائح العديدة التى أسداها إليه مشهورو الأطباء وبنو وطنه ليريح نفسه قليلا من العمل الفكرى وليجدد قواه ثم يستأنف جهاده فأنه مابرح يعمل ليل نهار

متنقلا من حاضرة إلى حاضرة ومن مجمع إلى مجمع ملقيا درر القول وأبلغ الحجج فى كل مكان معربا بأفصح لسان عن الحيف الذى لحق مصر من جراء احتلال انجلترا لها

تعرف إلى الكثيرين من أعضاء البرلمانات وزعماء الأحزاب وعلى الأخص فى فرنسا التى استطاع أن يدخل مجلسيها ويلقى على أعضائهما المشتغلين بالسياسة الخارجية والامور الاقتصادية من دخائل المسئلة المصرية وحالة مصر الاقتصادية مالم يكونوا ملمين بأكثره من قبل ، ولقد نقلت الشركات العامة وصف مواقفه وكلماته إلى كل صقع من الأصقاع .

وما جاء مؤتمر لوزان حتى كان أسبق المصريين جميعاً إليه وأعلاهم صوتاً فيه متعرفاً الى جميع أعضاء الوفود الدولية غربية كانت أو شرقية . محدثاً كبريات الصحف الاوربية والامريكية . عاملا لنشر حقيقة قضية الوطن فى كل مكان بأسلوب بين وروح سام ونزعة صادقة . وكلنا لا ننسى ذلك الاجتماع الكبير الذى دعا إليه - بوصف أنه على رأس

الحزب الوطنى ـ مندوبى المؤتمر فى مساء يوم الاحد ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ بفندق سيسل . وقد لبوا جميعاً دعوته. وبعد أن تناولوا الشاى خطبهم باللغة الفرنسية خطاباً حاز الاستحسان التام والاعجاب العام . ذلك الخطاب الذى نقلت الاسلاك البرقية فحواه وكانت له رنة كبيرة فى جميع الدوائر

كما نذكر تلك المذكرة القيمة التى كتبها فى مسئلة مصر والسودان فى الخامس من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٢ وطبع منها عشرات الآلاف ووزعها على جميع أعضاء مؤتمر لوزان والصحفيين والكتاب وجميع أعضاء برلمانات العالم المتحضر

برهن على فهمى كامل بك أن وطنيته من وطنية شقيقه المرحوم مصطفى كامل باشا . وطنية العمل والجد والاخلاص وحصر جميع القوى للدفاع عن قضية الوطن ورد كل إجحاف أو ظلم يصيب بنيه . ولقد تجلت عاطفة هذا الوطنى الوفى الأمين . عاطفة المحبة القومية والاتحاد على الغاصب بدفاعه المجيد عن الظلم الذى لحق سعد زغلول باشا وزملائه صارفاً النظر عن الفروق السياسية بين خطة حزبه وخطة الوفد

عاملا لارضاء الضمير الوطنى الصادق . وكلنا نذكر ذلك الخطاب الكريم الذى وجهه فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٢ إلى العالم المتمدين وإلى الأمة البريطانية وطبع منه خمسين الف نسخة وأرسله إلى جميع ساسة وكتاب وصحفي الأمم المتحضرة وفى مقدمتهم ساسة انجلترا وقد كان له فى أرجاء المعمور دويا كبيرا

قضى وطنينا فى منفاه الأخير خمسة وعشرين شهرا برهن فيها أنه من أقدر رجال مصر على الدفاع عن قضيتها ومرافقها . وقد نال احترام جميع الناس وجمع قلوبا كثيرة كبيرة حول وادى النيل من أولئك المسموعى الكلمة بين أممهم الكبيرى الصيت فى العالم أجمع . .

إن أكبر فضيلة وطنية تحلت بها نفس عزيزنا المحتفل به أنه لا يعرف اليأس ولا اليأس يعرفه وأنه يمر باللغو مر الكرام محتقراً المغرورين والحاسدين والمأجورين من أى طائفة أو من أى مركز كانوا

على أننا إذا كنا قد اغتبطنا بدفاع وطنينا الأجل عن

حقوق بلادنا اغتباطاً كبيراً . لا ننسى كذلك المعونات الأدبية التى قدمتها له مدام جوليت آدم تلك السيدة التى التى ينحنى أمام وطنيتها وعظمتها القومية ذوو التيجان والأمراء وكبار الساسة والكتاب من أى شعب كانوا . فقد عرفت وطنينا المكرم إلى جمع كبير من أطواد الرجال ذوى النفوذ فى فرنسا وفى غيرها . وأولت الولائم العديدة فى قصرها خدمة لمصر ولنجح قضية مصر . . .

إنا نشكرها من سويداء قلوبنا ولا نرتاب فى أن جميع المصريين سيشكرونها من سويداء قلوبهم يوم يصل إلى أيديهم فى المستقبل القريب مفصل كتابها « انجلترا فى مصر » . ذلك المؤلف النادر المثال الذى عربه سعادة على فهمى كامل بك منذ أربعة عشر شهراً وهو فى أوربا . .

تبنت مدام جوليت آدم بين مئات الكبراء الذين تبنتهم مصريين كريمين هما «مصطفى كامل» موقظ الوطنية المصرية وأخوه على فهمى كامل بك . وبالكلمة التى كتبتها إهداء لكتابها هذا تتعرف إلى هذه البنوة المشرفة . بنوة

الفرنسية العظيمة موجدة الجمهورية الفرنسية والتحالف الفرنسى الروسى والداعية منذ نصف قرن إلى الأخذ بالثار من المانيا

قالت فى هذا الاهداء ما نصه :

« إلى أسن جداتنا وأعظمهن . الى الموحية بالعلوم . إلى الامة المصرية الكبيرة النبيلة. إلى ابني البطل المقدام »مصطفى كامل »ذلك الذى أفنى حياته فى سبيل دفاعه الوطنى . إلى ابنى « على فهمى كامل » هذا الذى داوم على الجهاد بعزم صادق لتخليص وطنه من ربقة الاحتلال الانجليزى . إلى هؤلاء جميعاً أهدى هذا السفر الذى لا قيمة إلا برهان ولائه لقضية وطنية كبيرة

« جوليت أدم »

آبى دوجيف (فرنسا)

٣٠ ابريل سنة ١٩٢٢

***

ماوقعت فى لوندرة حادثة المرحوم « على بك كامل فهمى » نجل المرحوم على باشا فهمى المهندس و نقلت الاسلاك البرقية نبأها الى أنحاء المعمور حتى ظن الكثيرون أن المصاب (لاقدر الله) هو وطننا الأجل على فهمى كامل بك فنشرت

الصحف على اختلاف نزعاتها صورته وترجمة حياته وعلاقاته بالساسة وعلى الأخص بمدام أدم التى ورد اليها كما ورد اليه آلاف التلغرافات والكتب من جميع البلدان إما معزين وإما قلقين متشوفين إلى معرفة الحقيقة . وما علم القاصى والدانى أنه فى صحته يخطب ويكتب ويعمل لاستقلال وادى النيل حتى فرح الكل وزفت الصحف البشرى الى كل مكان وليست هذه الحادثة الا دليلا على قدر المحتفل به وعلو كعبه فى المسائل السياسية ومركزه فى العالم المتمدين

وما أذن مؤذن عودته إلى الوطن العزيز حتى رأى الكثيرون من أصدقائه الفرنسيين وفى مقدمتهم صفوة أعضاء مجلس الشيوخ والنواب أن يشتركوا اشتراكا فعليا وديا مع لجنة الاتحاد المصرى التى يرأسها حضرة الوطنى الغيور محمود بك السيوفى والتى صحت عزيمتها على تكريمه واعلان فضله للملأ قبل أن يبرح أرض الحرية والاخاء والمساواة

وما جاءت الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الخميس الحادى عشر من شهر اكتوبر الماضى حتى كانت القاعات العليا

لفندق الكونتينتال غاصة بالقادمين من كل صوب بين نواب وجنرالات وعلماء وكتاب وصحفيين وكل ذى حيثية أهلية فى باريس . وإنا نقتصر فى هذا البيان على ما كتبته الصحف الفرنسية وفى مقدمتها صحيفة الجولوا الذائعة الصيت فقد كتبت بعنوان « الوطنى المصرى العظيم » مقالا طويلا بقلم الكاتب الشهير بيير بليسى نقتطف منه ما تعريبه :

« إن أسمى صفة يتميز بها المرء على معاصريه هى صفة الوطنية الصادقة والهيام بحب الوطن . . . ولقد تجلت هذه الصفة النبيلة البارحة فى فندق الكونتينتال حيث أم قاعاته الكبيرة الواسعة الأرجاء صفوة أبناء فرنسا وأغلبهم من الممثلين للرأى العام وصفوة أبناء مصر المقيمين فى باريس ومن بينهم النشء المصرى الذى حج جامعاتنا ليغترف من بحورها العلوم المتباينة » . . .

« احتشد هذا الجمع لتكريم رجل سياسي حربى اقتصادى قانونى كبير القلب قوى الحجة باسم الشعر طلق المحيا هو على فهمى كامل بك ابن مصر الأثرية العظيمة والابن الأدبى للفرنسية الجليلة مدام جوليت آدم . . .

إن قراءنا يعرفون هذا الوطنى الكبير من كتاباته العديدة وأعماله القيمة التى نشرتها الجولوا . ولكنهم ما كانوا يعرفون أنه

من أندر خطباء العالم عامة ومن أعظمهم القاءاً بلغتنا العزيزة . . .

« أنى بالرغم من صداقتى لعلى فهمى كامل بك بحكم الرابطة الوثيقة العربي رابطة الأمومة الادبية المشتركة بيننا تلك التى شرفتنا بها على السواء الفرنسية العظيمة مدام جوليت آدم ـ ما كنت أعتقد أنه بلغ من قوة القاء القول بلغتنا إلى ما بلغه لأنى ما سمعته يخطب إلا البارحة ... سمعت صوتاً وطنياً رناناً ذا نبرات مؤثرة آخذة بمجامع القلوب . سمعت صوتاً تخيل لى أنه صوت أمة كاملة لقوته النادرة ولاختناقه بالعبرات الصادقة عند ذكر الوطن ومصائبه وآلامه وأنى لا أكون مبالغاً إذا صرحت بأنى لو لم أتعرف إليه من قبل لظننته فرنسياً من أولئك العظماء الذين حدثنا عنهم تاريخنا القومى . وكنت أتمنى أن يسمعه جميع الفرنسيين بلا استثناء ليثقوا بأن المقدرة الخطابية والوطنية الحديدية لم تكن فى فرنسا فحسب بل انها فى الشرق عامة وفى مصر خاصة ... لقد كانت دهشتي من قدرة هذا الخطيب وأعجابى الذى لا وصف له هما عين الدهشة والاعجاب اللذين استوليا على أنفس السامعين بلا استثناء

« أطرى على بك فرنسا الأهلية إطراء كبيراً ولا بد أن يأتى يوم ترد فيه الأمة الفرنسية على هذا الاطراء بما يستحقه من العناية توطيداً للرابطة الادبية التي توثقت عراها بين وطننا العزيز وبين وطن الفراعنة المجيد من زمن بعيد !

« فال لنا كامل بك ما قال ! « تدعى انجلترا باطلا أن لها منافع ممتازة عن منافع سائر الدول فى مصر . وأنها باسم هذه المنافع الموهومة يجب أن تتسلط عليها أو تحميها ... ولو صح هذا البهتان فى عرف الساسة المستعمرين فانه لا يكون إلا البطلان كل البطلان فى نظر الحق والشرع وسنة الوجود. وإلا فأنه بناء على القاعدة الانجليزية لا يكون لأية أمة قليلة العدد ضعيفة الحول مكان من الحرية والاستقلال فى العالم بل ويجب أن تندمج جميع الامم الصغيرة فى الامم الكبيرة!

«على أنه بدلا من أن تطالب مصر انجلترا بعد أن هاجمتها مرتين فى القرن التاسع عشر بضمانات تصون استقلالها من شر اعتداءاتها إذ تطالب انجلترا نفسها وهى الدولة العظيمة ذات السيادة البحرية المطلقة من مصر الواقعة فى ملتقى القارات الثلاث ضمانات لصون مواصلاتها وسلامتها ! . . »

«إن هذه الكلمات التى فاه بها خطيب البارحة بصوت جهرى وصل رنينه الى أعماق القلوب ليست إلا كلمات الاعجاز لخصم مصر المدعى فى جميع تياراته السياسية بأنه نصير العدل والحق والانسانية! فهل لا صدقائنا الانكليز أن يجيبونا على هذه الكلمات وهم العالمون بأن فى مصر شعباً قد أدرك حقوقه كل الادراك وأنه لا يقاس به لا فى عامه ولا فى نشاطه ولا فى ذكائه ولا فى استعداده أى شعب آخر من شعوب الشرق . بل ولا أكون مبالغاً اذا قلت أنه أرقى بزعمائه

وقادته والمفكرين فيه أمثال على كامل بك من شعوب أوربية كثيرة

«ألا ان الماضى السيء الذى حرم فرنسا ألزاسها ولورينها وحرم مصر إشرافها على مرافقها قد أخذ يتبدل بمستقبل حسن وكما أن ما سلبه الزمان منا نحن الفرنسيين قد رده الينا بفضل اتحادنا ويقظتنا وتضحياتنا فأن مصر المظلومة المهضومة حقها فى الحرية لا بد أن تدركها بهمة أبنائها العاملين الصادقين. أولئك الذين مثلهم فى حفلة الامس خطيب مصر المصقع على فهمى كامل بك أصدق وأشرف تمثيل»

* * *

هذا ولقد شهد حفلة التكريم المراسل الخاص لجريدة الاهرام الغراء وأرسل اليها وصفها فى إشارة برقية استغرقت نحو ثلاثة أنهر من أنهرها. وقد نشرتها فى يوم السبت ١٣ أكتوبر الماضى وهذا نصها:

تلغرافات خصوصية للاهرام

حفلة تكريم على فهمى كامل بك

فى فندق كونتيننتال فى باريس

باريس فى ١١ اكتوبر — لمراسل الاهرام الخاص — أقيمت اليوم فى « فندق كونتيننتال » حفلة بديعة مؤثرة تكريما لعلى فهمى

كامل بك بمناسبة سفره الى مصر بعد ما بقى عامين محروما من العودة الى وطنه وهو سيغادر باريس اليوم الساعة السابعة مساء الى مرسيليا ليبحر منها الى الاسكندرية. وقد تولت الجمعية المصرية في باريس الدعوة الى هذه الحفلة ولبى دعوتها كثيرون من ذوى المقام ورجال السياسة والادباء والصحافيين . وبعد انتظام عقدهم وتبادل الاحاديث وتناول الشاى اجتمعوا فى القاعة الكبرى حيث صفت مقاعد أمامها منصة جلس عليها المسيو لويس مارتن العضو النائب فى مجلس الشيوخ عن مقاطعة « فار » وقد تولى رياسة الحفلة وجلس الى يمينه ويساره على فهمى كامل بك ومحمود سالم بك . وعند ذلك وقف محمود السيوفى افندى فتكلم بحماسة الشباب شاكراً الحضور تلبيتهم دعوة الجمعية المصرية ثم ذكر الصداقة بين فرنسا ومصر قائلا « ان تاريخها يرجع الى بضعة قرون وقد بقيت ثابتة سليمة فى خلال هذه القرون واذا كانت قد مرت أوقات لم يكن الجو السياسى فيها ملائما لهذه الصداقة لتظهر فى كل حين قوية متينة فأن الشعبين الفرنسى والمصرى يشعران بهافى صميم القلوب ويدركان ان هذه العلاقة لازمة بينهما ويريان دماءهما ممتزجة بحب مبدأ واحد يجمع بينهما ويدفعهما فى سبيل المجد والسعادة وبعد ما ذكر الخطيب كفاح الشعب المصرى فى سبيل استقلاله وجه الخطاب الى على فهمى كامل بك راجيا أن يحمل الى مصر تحية أبنائها الموجودين فى فرنسا وقائلا فى مخاطبته: قولوا لمواطنينا أن لهم وطناً

ثانيا فى فرنسا حيث ترد موارد العلوم السامية فى جامعاتها وهى تقابل أمانينا بعطف عام وتكرم فينا الشعور الذى يدفع الشعوب الى الحرية والاستقلال . وقد قوبلت أقواله بالتصفيق

ثم خطب محمود سالم بك أحد كبار العاملين فى سبيل القضية المصرية فوصف بعبارات مؤثرة كفاح مصر فى سبيل الحرية وذكر العمل المجيد الذى قام به على فهمى كامل بك والمغفور له مصطفى كامل اشا شقيقه فى الكفاح لتحقيق أمنية مصر وحصولها على استقلالها

خطاب المسيو لويس مارتن

ثم خطب على فهمى كامل بك خطاباً بليغا كان وقعه عظيما فى النفوس فرد عليه المسيو لويس مارتن بعبارات بليغة قائلا أن أقوال على فهمى كامل بك قد أثرت فى نفوسنا أعظم تأثير لمطابقتها لشعورنا ففرنسا تحب مصر التى استرشدنا بمدنيتها فى ظروف كثيرة ويشق علينا دون أن نريد مس عواطف حليفة لنا ان نرى هذه البلاد التى كانت منبت الحرية ليست الآن متمتعة بحريتها . إن مصر كما قلتم لم تحرر الرجل فقط بل حررت المرأة أيضاً وقد استرشدت كثيراً فى تأييدى تحرير المرأة بالمثال الذى قدمته مصر فى هذا الصدد . وإننا لنود جميعاً ان نحصل مصر فى الغد على حريتها ونشعر فى أنفسنا شعوراً عظيما بأنها ستدرك أمنيتها بتمسكها بالوسيلة التى تمكننا بفضلها من الفوز

فى الحرب وهى الاتحاد المقدس بين جميع أبناء الوطن. وأما اذا كانت المنازعات الداخلية تفرق بينكم فان مهمتكم تكون صعبة جداً . فلا بد من اتحاد جميع المصريين لادراك الغاية المنشودة ولا أدرى لماذا أوجه اليكم مثل هذا الكلام وأنتم تدركون هذه الحقيقة كل الادراك ولا بد من أن تحصل مصر على حقها. فالقوة مهما تعاظمت لا بد لها من الضعف اذا لم يكن الحق فى جانبها والواقع أنكم أصحاب حق فالقوة نفسها ستدرك انها لن تكون لها صفة مشروعة الا اذا كانت قائمة على الحق

قولوا للمصريين انهم أعزاء علينا . واننا نحرم بسفركم من صديق كبير ولكنكم تنقلون اليهم العواطف الفرنسية وتتركون هنا أصدقاء مخلصين. اننا نتمنى ان تكلل مجهوداتكم بالنجاح وان يحتفى بكم يوما هنا لا كممثل مصر التي تكافح وتدافع عن كيانها بل كممثل مصر الظافرة . إنكم اليوم تمثلون مصر المجاهدة وستمثلون فى الغد مصر الظافرة . . .

(خطاب على فهمى كامل بك)

باريس ١١ اكتوبر — لمراسل الاهرام الخاص — هذا نص الخطاب الذى ألقاه على فهمى كامل بك فى الحفلة التى أقيمت فى فندق « الكونتيننتال » إكراماً له قال: —

أشكركم من صميم قلبي على العواطف السامية التى أبديتموها نحوى وأعلم أنها تتجاوز شخصى الضعيف وتتناول القضية المصرية

وأشكر الشعب الفرنسى لما يبديه من المجاملة والعطف نحو المصريين الذين يقابلون عمله بالشكر والامتنان العظيم

ان العالم كله ماعدا انكلترا يعترف بأن الامة المصرية جديرة بالحرية ولكن رجال السياسة البريطانية لا يزالون يخدعون شعبهم بافهامه ان الاستعباد خير من الصداقة. إن الساسة الانكليز يهقوننا كل يوم ويظهرون طباعنا وأخلاقنا بغير حقيقتها فيمثلوننا كقوم همجيين. وقد قرأتم فى المدة الاخيرة دفاع محام كبير فى لندن واستعطتم أن تتبينوا من خلال أقواله ما فى الروح الانكليزية من الحقد على الشرقيين عامة والمصريين خاصة. ان ذلك المحامى السياسى الذى أراد أن يكون كلامه أشد تأثيراً فى دفاعه عن موكلته قاتلة زوجها المصرى قد وجد فرصة ملائمة لتمثيل الشرق كنوع من الوحوش الضارية ناسياً ان عدداً كبيراً من النساء الغربيات يمشين الى جانب أزواجهن الشرقيين على أتم ما يكون من الامن والراحة والطمأنينة. ونحن المصريين كنا أول من أقام صرح المدنية فى العالم وعرفنا كيف نحترم المرأة حتى أقمنا منها أول ملكة كما يذكر التاريخ منذ خمسين قرنا. والمرأة عندنا مساوية للرجل فى جميع الحقوق المدنية.

لماذا يذهب الانكليز للحياة والمعيشة عند الشرقيين اذا كان هؤلاء الشرقيون متوحشين حقيقة؟ ألا فليغادروا سريعاً بلاد الهند وكل بلد شرقى آخر اعتدوا على حقوقه! أنعد متوحشين لاننا نجدو نعلن

ان لنا ثقة تامة بمستقبل بلادنا ولاننا نحتج على احتلال وادى النيل وعلى ضروب الحيف التي ترتكب نحونا باسم الحضارة البريطانية أو لاننا لانريد ان نعيش مستعبدين ؟ انعد متوحشين لاننا نظهر للعالم كله أن فى مصر أمة حية قوية ترمى الى أسمى الأمانى وهى أبية النفس تأبى الاستسلام للذل وأنها لا تسعى الى اغتصاب حقوق غيرها ولكنها تطالب بحقوقها المهضومة ؟ انعد متوحشين لاننا ندافع عن شرفنا الوطني ونريد ان نصون كرامتنا وان نشترك فى منافع العلم دون ان نتحول عن روح العدل ولاننا اتخذنا مبدأنا الخالد « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

ولكن اذا كانوا فى الحقيقة يسموننا متوحشين لاننا لانزال نوالى تذكير انكلترا بشرفها طالبين منها أن تفى بعهودها فاننا نقابل ذكر هذه الوحشية بالارتياح وليقولوا اذ ذاك اننا متوحشون جداً !

ان الانكليز لم يكتفوا باستقلال بلادهم وقد استعبدوا كثيراً من الشعوب وتسلطوا على البحار ولا يزال كثيرون منهم ينادون بالتوسع والفتح ! انهم يعجبون بالوطنية وهذا من الامور الطبعية ولكن لماذا لا يكون الامر كذلك فى مصر ؟

ان الانكليز يتهموننا أيضاً بأننا نطالب بحقنا فى الاستقلال التام لكى نسلم بعد ذلك وطننا الى دولة أخرى فنحن على زعمهم نريد استبدال سيد بسيد لا الحصول على الحرية! ولكن اذا كان

المصريون المتعلمون لا يسعون الا لاستبدال نير بنير فان ذلك يكون اهانة كبرى للمدنية نفسها ويكون فى الوقت نفسه برهاناً غريبا على أن العلوم والآداب الغربية المنتشرة فى مصر لم تنتج سوى أنها زادتنا تمسكا بالاستعباد !

والزعم بأن الامم العظيمة التى لها بعض الصوالح فى بلاد أمم صغيرة يجب ان تتسلط على هذه الأمم . معناه انه لم يبق مكان لأية أمة صغيرة حرة فى العالم . والواقع انه بدلا من ان تكون مصر التى هاجمتها انكلترا مرتين فى القرن التاسع عشر هى التي تطالب بضمانات تصون استقلالها اذا بانكلترا العظيمة صاحبة السيادة على البحار هى التى تطلب من مصر الواقعة فى ملتقى القارات الثلاث ضمانات لصون أمنها وسلامتها !

فلتعلم الامة الانكليزية جيداً اننا ننادي على رؤوس الاشهاد مطالبين بالاستقلال التام لوادى النيل كله لكى نكون المسيطرين على مرافق بلادنا المتصرفين فى أمورها داخلا وخارجا . وأننا مع بقائنا أصدقاء لجميع الشعوب نسير على مقتضي النواميس الطبعية التي تحتم على جميع الذين تماثل مصالحهم ان يتفاهموا ويتحالفوا ويتعاونوا . فاذا كانت انكلترا تريد حقيقة ان توالى مصر فان ذلك لا يكون بوسائل القوة بل بجلاء جنودها عن وادى النيل وباحترام حقوق الامم الذى هو أقوى رابطة بين جميع الشعوب بلا استثناء . وبهذا

لا بغيره يمكن ان تحل الصداقة محل البغضاء .

إن شعبا كشعبنا يدرك حقوقه كل الادراك ويحرص على كرامته القومية لا يعرف لليأس معنى ولا تثنيه عزيمة بل يظل ثابتاً مواظبا على المطالبة بحقوقه المقدسة

وانى بعد ما قضيت سنتين مبعداً عن وطني أعود الآن اليه حاملا من فرنسا العزيزة ذكريات لا تزول من نفسي ولها محل عظيم فى قلبى وإنى أوجه شكرى الجزيل الى الامة الفرنسية عامة والى أمنا الادبية مدام حوليت آدم خاصة فانها على رغم كبرها وانهماكها فى الشؤون الوطنية قد بذلت كل مافى وسعها لمساعدة وطننا العزيز وهى فى أعيننا خير رمز لكرم الضيافة الفرنسية . وإننا لنؤمل ان يتحول شقاء اليوم الى سعادة فى الغد وان يحل العدل محل الجور وان يتحقق السلم المنشود منذ زمن طويل فلتحى فرنسا وليحى العدل والحرية !

***

ما انتهى وطنينا من حفلة تكريمه بباريس حتى قصد الى المحطة وفى صحبه ذلك الجمع الكبير الذى هتف لمصر هتافا علياً وحياها تحية الود والوفاء بين الامتين

وما وصل الى مرسيليا حتى كان فى انتظاره الكثيرون من أصدقائه المصريين والفرنسيين وبعد أن حيوه وصافحهم

قصد تواً الى الباخرة « سفنكس » من بواخر شركة الميساجيرى ماريتيم الفرنسية إذا استقبله قومندانها وموظفوها بكل ترحيب وتكريم . وبعد أن استراح دعاه مجلس إدارة هذه الشركة على ظهر الباخرة لتناول بعض المرطبات وأبلغه تحية الشركة لمصر بأسرها فى شخصه الوطنى وقدم له هدية تقبلها بكل شكر . تلك هى تنزل الشركة عن ثمن التذاكر التى كان دفعها لعبور البحر الى الاسكندرية وقدرها سبعة آلاف فرنك

ما علمت الأمة المصرية بعودة ابنها الصادق فى الدفاع عن حقها المسلوب وعن كرامتها المهانة إلا استعدت للقائه بما يليق بوطنيته الكبيرة من صنوف التكريم والاحلال .

ومرست الباخرة التى أقلته بميناء الاسكندرية فى صباح يوم الاربعاء السابع عشر من شهر اكتوبر حتى صعدت اليها الوفود التى توافت من كل أقليم وعانقته وعانقها وارتفعت أصوات الالوف المؤلفه هاتفة للوطنية

والاخلاص وللثبات على المبـدأ وللتضحية فى شخص على بك كامل هتافا عالياً

ولقد كان فى مقدمة الذين استقبلوه وفد الحزب الوطنى وعلى رأسه الاستاذان الفاضلان أحمد بك لطفى وسعيد بك طليمات ووفد لجنة التكريم وعلى رأسه الوطنيان الغيوران عبد القادر افندى التونى وحسن افندى شافعى المهندس وغيرهم كثيرون

احتفلت مدينة الاسكندرية بقدومه احتفالا لا يقل عن تلك الاحتفـالات التى كانت تستقبـل بها المرحوم « مصطفى كامل » عند عودته من جهاده خارج البلاد

أقام الحزب الوطنى لزعيمنا الاجل حفـلة فى فنـدق ريجنيا بالاسكندرية حضرها جم غفير من أساتذة وأعيان الاسكندرية وألقى فيها العائد الكريم خطاباً هز به القـلوب وأسال العـبرات وأعاد الى الاسماع المتشوقة من زمن بعيد رنين صوته العالى وكلمـاته التى تصل الى أعماق القلوب

وفى يوم الخميس الثامن عشر من شهر أكتوبر ركب القطار الذى تحرك من الاسكندرية فى الزوال فودعه بمحطاتها خلق كثير هاتفين لمصر وللوطنية الصادقة. وقد كان الاستقبال والهتاف فى كل محطة قائمين على طول الطريق حتى اذا ماوصل إلى محطة مصر كان الناس بعضهم فوق بعض من شدة الزحام وكان فى مقدمتهم حضرات الافاضل عبد اللطيف بك الصوفانى وحافظ بك رمضان وسعيد بك طليمات وغيرهم وبعد أن صافحهم جميعاً سار فى موكب من السيارات المزدانة بالاعلام الوطنية وفى مقدمته سيدات النهضة المصرية وبنات النيل الوفيات . . .

وبعد أن استراح هنيهة بمسكنه قصد الى دار اللواء حيث أعد الحزب الوطنى حفلة تبودلت فيها التحيات ومظاهر الاخلاص ولقد أعجبتنا كلمة قالها حضرة الاستاذ حافظ بك رمضان فى هذه الحفلة وهذا نصها : « إن القادم الذى نحتفل به ليس الا أكبر ركن من أركان الحزب الوطنى . لان أعماله المتواصلة ووطنيته النادرة يشهدان بأنه العلم الفرد والوطنى

الذى ما انفك يقول « بلادى » منذ أكثر من ثلاثين عاما »

وماقاله الاستاذ حق لاريب فيه فان ماضحى به على بك فى سبيل خدمة بلاده يربو على كل تضحية من ضحايا الاحياء ولانه أقدم وطنى حى اشتغل بالمسئلة المصرية فى هذه الديار ..

عاد بعد هذه الحفلة الى منزله وأخذ فى استقبال الوفود الجمة التى توافت اليه من انحاء البلاد لتشكر له وطنيته الصادقة وما تحمله فى سبيل بلاده

وكان بين هذه الوفود العديدة وفد قسم الجمالية وفى مقدمته الاستاذ الورع والعالم الجليل صاحب الفضيلة الشيخ على المفتى . ولما أشير عليه هذا الوفد بأن يتقدم للنيابة عن دائرة الجمالية فى مجلس النواب قال له على مسمع من الملأ بأعلى صوته « انى لا أتأخر عن قبول النيابة عنكم لانى مادافعت عن حقوق مصر السنين الطويلة إلا باسم الامة المصرية بيد أنى أشعر بقدومى متأخرا بعد أن تمت انتخابات الدرجة الأولى ... » فقال له : « كلا ليست العبرة كما تعلم بالترشيح انما العبرة بالانتخاب الذى لم يحدد موعده بعد فانتقبل ونحن

نرشحك ونزكيك وننتخبك . ومن يتوكل على الله فهو حسبه ...»

ولقد عقد أبناء هذا القسم المخلصون حفلات كثيرة دعوا اليها وطنينا العظيم وسمعوا صوته الرنان وحججه البالغة وأدركوا أن روحه الكبير الطاهر لم يكن روحاً عادياً وأجمعوا أمرهم بينهم على تحقيق بغيتهم نسأل الله معاونتهم ومعاونة كل مخلص فى هذه الديار على خدمة وادى النيل

هذا ولو أردنا أن نسجل أعمال هذا الوطنى المفدى لاحتجنا الى عشرة أسفار ضخمة كلها همة وعلم ووفاء لمصر العزيزة ولكننا اكتفينا بهذا الايجاز مشيرين الى خطاباته وحدها منذ عام ١٨٨٩ ميلادية حتى اليوم بالملحق الذى يجده القارئ فى نهاية هذه الرسالة

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يهب على فهمى كامل بك العافية والعمر المديد وان ينصر مبادىء حزبنا الوطنى الامين انه نعم المولى ونعم النصير

لجنة التكريم

خطابة على فهمى كامل بك

فى حفلة تكريمه

بالقاهرة فى يوم الجمعة ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٣

أقامت لجنة الاحتفال بتكريم سعادة على فهمى كامل بك حفلتها فى نادى سيروس فما وافت الساعة الرابعة حتى توافد جمهور من الكبراء والفضلاء على النادى وقد أعدت الصالة الكبرى فيه للاحتفال ووضعت فى صدرها منصة للخطابة رفعت الى جانبيها صورتا فقيدى الوطن المرحومين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك . وبعد أن اكتمل عقد الاجتماع بدىء بترتيل القرآن الحكيم ثم ألقى حضرة حسن افندى شافعى الجيزاوى من لجنة الاحتفال كلمة الافتتاح وقد ضمنها الشكر للحاضرين على تلبيتهم الدعوى للاحتفاء بذلك الوطنى المجاهد بعد عودته من منفاه ووصف جهاده فى خدمة مصر أثناء نفيه بخطبه ورسالاته ومحادثاته السياسية . . وتلاه الاستاذ الشيخ عبدالغنى عطية

فالقى قصيدة مؤثرة ثم تلاه الاستاذ على فهمى خليل افندى فالقى كلمة عن الاحتلال وضرورة تكريم الرجال العاملين للخلاص من ربقته . ثم اعتذر الاستاذ حسن شافعى الجيزاوى أفندى للخطباء والشعراء الذين أرادوا أن يلقوا خطبهم وقصائدهم بضيق الوقت عن سماعها

وعلى أثر ذلك وقف سعادة على فهمى كامل بك فالقى خطبة سياسية جامعة هذا هو نصها :

« أصدقائى وبنى وطنى الأعزاء

أشكر لكم من سويداء قلبى عطفكم الوطنى على شخصى المتواضع معتبراً أن كل تكريم يوجه إلى خادم المبدأ القويم . مبدأ استرداد حق مصر الكامل فى الحرية والاستقلال إنما يوجه إلى المبدأ نفسه .

وأحمد الله حمداً جزيلا على ما أولانى من نعمة لقائكم بعد طول البعاد وافلين فى ثوب الوطنية الصادقة والعافية المرجوة . هانئين بحب وطن كبير عزيز أنتم أبناؤه ووارثوه وحارسوه ومورثوه لذرياتكم . وأشكره عز وجل على ما وهبنا جميعاً من قوة ورشد فلا عسف الغاصبين فل عزمنا ولا إرهاقاتهم أخمدت نار حميتنا . ولا ما سببه لنا عسفهم من الغوائل أنسانا ما فرضه الله علينا من الدفاع عن سلامة وطننا والذود

عن شرفنا ومناصرة حقنا فى الحرية الكاملة والاستقلال التام.

لقد أعجب العالم كله بنهضة أمتنا العزيزة من أمرائها إلى أجرائها وأطرى جد الاطراء يقظتها وثباتها وصبرها وأصبح لا يشك فى صدق وطنيتها ونبل نزعتها معتقدا كل الاعتقاد أنها مدفوعة بعاملها القوى الهادى إلى العمل لتحرير بلادها كلها تحريراً تاما من سيطرة الأجنبى واحتلاله المزرى . وأن قوته بلغت ما بلغت من الشدة والجبروت فى معاملتها لا تقوى أبداً على إذلالها ولا تستطيع بأى حال أن تتملك قلوب أبنائها الطاهرة أو تتغلب على نفوسهم الكريمة أو تغير عقيدتهم الوطنية !

فاسمحوا لى باسم الوطنية الصادقة أن انتهز هذه الفرصة لأحدثكم حديثها راجيا عفوكم عن قصورى آملا أن تتكرر اجتماعاتنا لنتشاور فى أمورنا العامة ولنصف الدواء الناجع لأدوائنا عسى أن نصل بسفينة الوطن الى بر السلامة آمنين

الحزب الوطنى

مارمى « مصطفى كامل » بجهوده الوطنية الصادقة حتى صيف عام ١٩٠٧ إلا إلى غرض واحد هو جمع الأمة حول لواء الوطن العزيز يبث روح الوطنية السليمة فى أنفس أبنائها مبتعدا كل البعد عن اظهار الحزب الوطنى مظهره النظامى حتى لا يفتح به باباً للمنافقين والمستضعفين الزائفى العقيدة الوطنية فيؤلفون أحزابا أخر ! إذ أنه

كان يعتقد اعتقاداً صحيحا أن تعدد الأحزاب المختلفة المشارب والخطط فى بلد محتل كبلدنا ينفع الاحتلال بقدر مايضر قضية الوطن !

بيد أنه عند ما علم وهو فى أوربا أن حزب الأمة قد تألف من مساهمى شركة « الجريدة » وجلهم من المستضعفين فى يوم السبت ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وعلم كذلك أن حزبا آخر سيؤلف باسم حزب الاصلاح من نصراء جريدة المؤيد . وهم خدام سياسة السراى — صحت عزيمته على أظهار الحزب الوطنى مظهره الحقيقى وكتب إلى كما كتب للمرحوم محمد فريد بك بعزمه هذا ومما جاء فيما كتبه إلى :

« . . . . . إن ظهور حزب الأمة المؤلف من أولئك الذين خبرنا نفسيتهم وميلهم الى مسايرة المحتلين وفقا لما يسمونه سياسة اللين والتدرج . وان ماعلمته كذلك من عزم صاحب المؤيد على تأليف حزب باسم « حزب الاصلاح » لخدمة سياسة السراى — هذان الأمران يحتمان علينا كل التحتيم أن نظهر حزبنا الوطني بالرغم منا مظهره الحقيقى حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصرى حزبا يطلب بعزيمة صادقة الجلاء والدستور . أى أنه لايقبل لاحكم الأجنبي ولا حكم الفرد عاملا لاستقلال بلاده وحرية أمته باستردادها حقها فى الاشراف على أمورها العامة . . .

« نعم انى أرغب الآن كل الرغبة فى ظهور الحزب بحال منظمة بالرغم من وطنيتى التى ترى فى تعدد الأحزاب حربا اهلية لامندوحة

عنها . حربا تعوق ولو إلى حين ما نرمي اليه من حرية واستقلال بتقوية مركز المحتل لبلادنا . . .

« ولكن ما العمل ونحن لوسكتنا أمام هذه الحال التى ما أوجدها الا دهاء سير غورست وقصر نظر المؤلفين لهذين الحزبين . لفقدنا كل شيء ولأصبحت الوطنية المصرية عدما فى عدم بتغلب المبادئ السقيمة عليها وتقاعس المخلصين عن نصرتها وإنمائها . . .

« ان مهمة الحزب الوطني ستكون لامحالة قائمة على الصراحة وأنى لا أشك فى تغلبنا على جميع الصعاب بفضل وطنيتنا وصدق عزيمتنا . . . . . .

« فاعمل مع فريد بك الذى كتبت اليه اليوم واخبر الاخوان المخلصين لتعدوا ما يلزم لظهور الحزب دون أن يشعر بعملكم أحد حتي أعود اليكم قريباً بمشيئة الله . . . »

عاد مصطفى كامل من أوربا وألقى خطابته الجامعة بمدينة الاسكندرية فى مسرح زيزينيا فى يوم الثلاثاء ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ وبها أعلن مبادىء الحزب ودعا الأمة للدخول فيه . م . ثم اجتمعت الجمعية العمومية لهذا الحزب فى يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء بالقاهرة وعرض عليها رحمه الله مبادىء الحزب وقانونه فأقرتها ومن ثم علم الدانى والقاصى بوجود الحزب الوطنى المصرى لثالث مرة فى تاريخ الوطنية المصرية ودخل الناس فيه أفواجا . . .

فالحزب الوطنى ليس بالحديث العهد لتخبره الأمة فى خدمتها أو أنه فى حاجة لاعلان شخصيته حتى يزاحم بها غيره ممن يخدمون المسائل العامة ؟ كلا . بل هو أقدم حزب عرفته الأمة حزب الوطن . حزب الحرية والاستقلال . حزب المبادىء الراسخة والايمان القوى . حزب الهدى والحق واليقين :

ما رمى الحزب الوطنى ولا يرمى بخدمة بلاده الى احتكار الوطنية لنفسه أو الادعاء بأنه صاحب مصر وحده ومن يدع عليه ذلك فليس الا ظالما لايخاف الله ولا يحترم نفسه

ان أعضاء هذا الحزب المنتشرين فى طول البلاد وعرضها لايريدون على جهادهم جزاء غير استقلال بلادهم وحرية أمتهم . عالمين ان الحق العام حق مشاع بين الامة بأسرها وان لكل مصرى كائنا مركزه الاجتماعى ما كان الحق كل الحق فى الدفاع عن حياض بلاده باسترداد استقلالها المغصوب والذب عن شرفها الوطني شرف آبائه وأجداده وشرفه وشرف أبنائه من بعده . وتخليص وادى النيل من حكم الاجنبى وسيطرته . والسير بمرافق هذا الشعب الكريم الى أرقى ما يصبو اليه الشريف النزعة فى الحياة . .

يعلم رجال الحزب الوطنى منذ نشأته أى منذ سمعوا أو قرأوا كلمات « مصطفى كامل » فى الوطنية أن من الاجرام انكار هذا الحق على أية جماعة أو على أى فرد من أبناء الوطن . . لذلك كان

استياءهم عظيما من الذين تنابذوا بالالقاب وتحاربوا بالسباب ليظهر بعضهم على بعض باسم الدفاع الوطنى والتباهى بخدمة الاوطان

أولئك الذين لم يعملوا كما تحتم الوطنية الصادقة للم الشعث ورأب الصدع فى وقت كاد فيه غاز الاستعمار يخنقنا جميعاً ! بل عملوا لتشتيت الوحدة القومية بعد أن كانت رافلة فى ثوب العزة فى سنة ١٩١٩ حباً فى نصر شخصيتهم الفانية وخذلان غيرهم ولو كان فى هذا الخزلان خسار الوطن برمته

ألا انه لفرض محتم الاداء على المتصدرين للدفاع عن حرية أمة واستقلال وطن أن يجردوا أنفسهم من رزائل الانانية وشرها ويجروا على سنن قادة الامم والجيوش من الانتفاع بكل ساعد قوى وعقل سليم لتهيئة العدة للدفاع او للهجوم وان يحرصوا كل الحرص على تقوية الروح المعنوية بين الصفوف تلك التى أجمع أدلاء الشعوب وعلماء الاجتماع على أنها عامل النصر وبشيره فى كل حرب سياسية أو مادية بل و نادى الكثيرون من ذوى الرؤوس الكبيرة والنفوس الكريمة بأن بالروح المعنوية القوية يتم النصر فى كل أمر !

كما ان من واجب الزعماء أن يكونوا قدوة حسنة للنشء فلا يصرفون أوقاتهم فى المهاترات الشخصية وعلى الاخص متى كان الغريب محتلا بلادهم ومتغلغلا بنفوذه فى مرافقها وعيونه الساهرة ترصد حركات أمتهم وسكناتها عاملا لأعداد قبرها الأبدى من حيث لا يشعرون !

نعم استأثنا كل الاستياء من هذا الخال وتوسلنا إلى الله أن يهدينا السبيل السوى سبيل الوفاق والاتحاد مادمنا جميعاً طلاب حرية كاملة واستقلال تام لوادى النيل من أقصاه إلى أقصاه . . . إذ أن من الخطل الحسي بل ومن الجناية الكبرى على الأوطان أن ينصرف جل بنيها عن خدمة الوطن الى مناصرة الأنفس الزائلة أو محاربة الاشخاص البائدة فى وقت يرى أقل الناس شعوراً بالواجب أن مصر أحوج ما تكون الآن الى الاتحاد التام على خصم خادع ماهر ! عالم غنى ! قوى باطش ! جبار عتيد !

ليست الجماعة القوية بمبادئها العزيزة برجالها فى حاجة مع احتلال الأجنبي لبلادها الى محاربة غيرها من الجماعات والاحزاب ولو كانوا دونها مبادئ وأقل نفرا ! والا فماذا يربح الوطن من الحرب الأهلية ؟ أيقوى ويدرك استقلاله ؟ كلا . إنه على الضد يضعف كل الضعف بتخاذل بنيه وإنها كم قواهم وتضحيتهم بمواهبهم وأوقاتهم وأموالهم فى محاربة بعضهم بعضا بينما يزيدون المعتدين على ديارهم وكرامتهم وكيانهم وعرضهم الوطنى قوة على قوتهم بهذا التخاذل والله لاينصر المتخاذلين !

قال مصطفى كامل فى خطبته التى ألقاها فى باريس فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٥ أى منذ تسعة وعشرين عاما يوم كان فى الواحدة والعشرين من عمره ما نصه :

« اتحدوا كلمة ومبدأ وانبذوا المآرب الشخصية وراءكم ظهريا واعملوا باخلاص تام وبحرية ضمير حتى يشفى الوطن المصرى من الداء العضال وينجو من الاحتلال وقد وصل أنينه من جرائه الى عنان السماء

« لا تتحقق وحدتنا الا باتحادنا وائتلافنا فلنتحد قلباً ولسانا ولكن يداً واحدة فى خدمة الوطن وإسعاده . . . »

وقال فى خطبته التى ألقاها بالاسكندرية فى مسرح عباس فى ٣ مارس سنة ١٨٩٦ مانصه :

« إنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب . . . . ولا يسلم شعب راغب فى الحرية المدنية والسعادة الاجتماعية الا إذا اتحد أفراده . . ومستحيل علينا أن نصل إلى الاستقلال ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات فلنتحد قلباً ولسانا ولا يكن مثلنا مثل أسرة اشتعلت النار فى دارها وأفرادها متباغضون فبدلا من أن يجتمعوا لأطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من المتاع غير ناظرين الى أن النار تصل إليهم فتحرقهم هم أنفسهم وتحرق متاعهم وتقضى على دارهم القضاء الأخير إذا لم تزل آثار الشقاق من بينهم ويجتمعوا على مكافحتها واطفائها ! . . . الا ان يوما تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا لهو اليوم الذى تتحقق فيه الآمال وهو هو عنوان سعادة الحال والمآل ويحق لنا

فيه أن نقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى أصواتنا وبكل فخار « نحن بنو مصر الأحرار »

وقال فى خطبته التى ألقاها بالاسكندرية فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ ما نصه :

« ضحوا جميعاً بأحقادكم الذاتية وخصوماتكم الشخصية ولتنسوا العداوات والاختلافات أمام الغاية الوطنية وأمام مرافق الوطن....

« إن الذين ينسون أشخاصهم تاركين الطمع فى الزعامات والرئاسات متبعين من كان مع الحق ولو كان أصغرهم لهم الوطنيون الصادقون »

وقال رحمه الله فى آخر خطبة ألقاها قبل موته بخمسة وأربعين يوماً. فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء بالقاهرة أمام الجمعية العمومية الأولى للحزب الوطنى ما نصه :

« ضموا صفوفكم واجمعوا أمركم وليكن الواحد الكل والكل واحداً وصموا آذانكم عن الدسائس والوشايات واعلموا أنكم القائمون باشرف مهمة فى أشرف وطن لخدمة خير أمة أخرجت للناس. وكونوا يداً واحدة فى تأييد الحق المقدس واسترداد حريتكم واستقلالكم... ونادوا معى بأعلى أصواتكم « لتحى مصر . وليحى الاستقلال... »

هذا ماقاله مصطفى كامل : هذا هو الحق اليقين ! هذا هو سبيل الحزب الوطني حزب الكنانة الذى وجد فى جانبه قبل الحرب أحزاب أخر كانوا دونه مبدأ فصرعهم بقوة مبدأه وبحكم الزمان ماضيا فى

سبيله غير متصدر لنزالهم أولمهاترتهم أولمفاخرتهم بما قدمه لبلاده من أعمال ! وبما ضحى به من وقت ومال ! وبما أصابه من أذى ونكال !

ليس للوطني المخلص العامل لرفعة بلاده وسؤددها أن يفخر بجهوده التي قدمها لخدمتها فان الجهود التي نبذلها جميعاً فى سبيل تخليص وطننا بلغت من القيمة ما بلغت لا تعدل مثقال ذرة من دينه علينا ومما يحتمه التضامن القومى وكرامة الوجود !

إننا لو خرجنا عن كل مالنا الوطن . وضحينا براحتنا وبصحتنا فى سبيل الوطن . وقضينا أعمارنا فى السجون والغصص والآلام خدمة لحرية ابن الوطن . فليس ذلك إلا برا بعهد أخذناه على أنفسنا منذ شعرنا بأننا مصريون وبأن أديم هذه الارض من أجساد آبائنا وأجدادنا !

يقول أعداء الحق والحقيقة أننا خدام أشخاص لا خدام مبادىء . وأن القوة التي تحرك أقلامنا وتنطق ألسنتنا . إنما هى قوة العروش والأمراء وذوى المال (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا)

عجباً ! أتهوى أنفس المضللين إلى هذا الدرك الاسفل ؟ إن الحزب الوطنى . وقد اشتعلت رؤوسنا فى خدمة مبادئه شيباً يعلن مرة أخرى الملأ كله أن قوته مستمدة من وطنية رجاله . أولئك الذين قدموا البرهان تلو البرهان فى ماضى الأيام وحاضرها أنهم لا يقيمون وزناً إلا لمن عاملوا ويعملون بالمبادىء القويمة . وجاهدوا ويجاهدون

بأخلاص لخلاص وادى النيل من نير العبودية ورق الاحتلال كما أنهم يمقتون الذين يعملون لذواتهم متقاعسين عن الاخذ بناصر بلاد رفعتهم من ضعة وأغنتهم من فقر سواء أكانوا أمراء أم كانوا كبراء أم عظماء لان الأمير والكبير والعظيم كلهم ليسوا جديرين بهذه الالقاب وبأى احترام إلا إذا أخلصوا للوطن وضحوا بكل غال فى سبيل عزة وعظمة الوطن : ليفقه الذين لم يفقهوا حتى الساعة نزعتنا ومراميها أن قلوبنا ومشاعرنا وأرواحنا وقف على خدمة بلادنا وقد فتنا تاريخها وجمالها وعظمتها كما فتنت معنا العالم كله وكما أسدت الينا المكارم وأحيت فى نفوسنا الفضائل فكنا لها أوفياء وللمغيرين عليها أعداء وعلى النا كثين بهدها أشداء !

ليفقهوا أن الذين وهبوا بلادهم قواهم وأعمارهم منذ نشأتهم ليس لهم لذة فى الحياة إلا تحقيق ضالة الاستقلال التي ينشدونها وحرية الأمة التى يخدمونها !

لقد تطوعنا منذ عشرات السنين لخدمة وطننا وما كان لأحد أن يحملنا على هذا التطوع إذا كنا — لاقدر الله — فقراء فى الوطنية وما كان لقوة فى الوجود أن تجعلنا نفضل الكناتة وأمتها على منافعنا الذاتية إذا كنا — لاسمح الله — أنانيين كالذين اشتروا الدنيا بالآخرة والفرد بالجماعة والاحتلال بالوطن ! إننا لو كنا نعمل لذاتيتنا لبلغنا من زمن بعيد إلى أرقى المناصب الحكومية ولا حبناها

حباً جما وجمعنا المال جمعاً لمّاً ضاربين بالوطنية عرض الأفق ناسين قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » !

إنا نحمد الله الذى مكن للوطنية فى نفوس الكثيرين من أبناء وادى النيل بعد أن كان لا يتغنى بها منذ عشرات السنين غير مصري صميم هو ذلك الرئيس الكريم « مصطفى كامل » نحمد الله الذى بدل عسرنا يسراً وهدانا السبيل السوى سبيل المخلصين العاملين فأصبحنا بنعمته إخواناً نكرر جميعاً كلمة ذلك الوطنى الأعظم :

« إن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بجهودها وليست الشعوب التي لا ترجو ارقى الا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولا تصون استقلالها الا بالاعتماد على حلفائها الا شعوباً فى خطر وحياتها مهددة فى كل وقت : »

***

ونادى أعداء الوطنية المصرية بأن الحزب الوطنى أصبح ضعيف الجانب بعد أن كان رهيباً قليل العدد بعد أن كان كثيره معللين ذلك بأن أمته أعرضت عنه واعتنقت مذهباً غير مذهبه ؛ آلا انها سبة للامة المصرية بأسرها لم يوجهها أعداؤها اليها الا ليجردوها من وطنيتها ويصموها بأنها عدوة المبادىء القويمة عدوة الجلاء والاستقلال صديقة الاحتلال والاختلال !

هذا ما نادى به أعداء الحقيقة نصراء البهتان وما جاء الزمان

بالميثاق الوطنى الذى وضعه حزبنا المنصور ورضى به الوفد المصرى فى روما وأعلن للملأ كله فى ثوب الاتفاق المحبى والاتحاد المكين الا كان ضربة قاضية على أولئك الثرثارين من المستعمرين وصحفهم ومن ناصروهم من كل وغد زنيم أو هماز مشاء بنميم !

فالميثاق الوطنى هو دليلنا اليوم وغداً . ميثاق سداه الشرف الوطني ولحمته جلاء الاحتلال عن وادى النيل . ميثاق مفروض على الصحف المصرية أن تحلى به صدرها فى كل يوم وعلى الأمة أن تتلوه مادام الاحتلال قائماً فى البلاد وما دام استقلالها الفعلى مغصوباً مهانا

الأمراء والاتحاد

خشى المخلصون على اتحاد الأمة أن تفصم عراه بما رأوه من مهاترات بعض الاحزاب وتراميهم بالقذف المعيب وصنوف الاتهام تاركين الاحتلال دون أن يذكروه ذكر الصادقين صارفين النظر حتى عن كلمة الاستقلال التى يجب أن تكون تسبيحنا فى الغدو والرواح!

هال المخلصون هذا الهذيان فرفعوا أصواتهم من كل جانب داعين الى الاتحاد لاعنين المروق والأنانية والانقسام

وهانحن أولاء قد قرأنا فى هذه الأيام نداء أمرائنا الأجلاء الذين اشتركوا مع الأمة اشتراكا فعليا منذ الثالث من شهر يناير سنة ١٩٢٠ على أثر بلاغ لجنة ملنر حيث أصدروا بلاغتهم المتتالية وأدلوا بآرائهم فى كل مامن شأنه تحقيق استقلال البلاد

فعل أمراؤنا ذلك جهاراً بعد أن كانت أعمالهم الوطنية العديدة مستورة فى بطون التاريخ . ذلك لأنهم مصريون مخلصون من جهة ولأنهم من دم ذلك الرجل العظيم المذكور بالتبجلة فى كل جيل « محمد علي الكبير » فهو الذى أحيانا من العدم وأنهضنا من القبر وأنجانا من الفوضى . فهم أمراء بالدم والجنس ومكارم الأخلاق

واذا كان نداؤهم بالاتحاد موجه للأمة بأسرها فإن الحزب الوطنى الذى تقدم بإخلاصه أمام الملأ كله منذ عشرات السنين ليلقن أمته دروس الوطنية لاشك يعرف أعضاؤه معنى الاتحاد مدركين أن به وحده نؤمن سبيل النجاح معتقدين كل الاعتقاد أن بناء العزة القومية والفتوة الأهلية لا يكون على الذرا رفيع العماد الا إذا كان أساسه الاتحاد ! ولا يسلم الوطن الا بقوته ولا تسترد مصر الحديثة عظمة مصر الفرعونية الا بعوامله !

ألا إن أكثر الأمم مالا وأعزها نفرا وأشدها قوة فى البر والبحر لا تكون الا أضعفها وأذلها وأحقرها اذا لم يكن أبناؤها متحدين على خصماء بلادهم . وكانوا متآزرين ليدفعوا عنهم عارا لذل وضيم الاستعباد !

يعرف أعضاء الحزب الوطني حق المعرفة أن ليست كلمة الاتحاد آخر حجر فى بناء الوطنية بل هى أساسه وقوته وقوامه والأمة التي يكثر أبناؤها من ذكر الاتحاد ويرجونه ويلحون فى تحقيقه بعد أن لقنتهم الحوادث وجوب الاتحاد — لهى أمة جديرة بأن يصفها العالم

بأنها ليست على شيء من الوطنية ؛ وهذا حال لا يرضاه وطني مخلص لأمته!

ألا إنه إذا صح أن يختلف أبناء الأمة في بعض الامور فإنه لا يجوز أبداً ان يختلفوا في أمر الدفاع عن اهانة الوطن وفي العمل بكل وسيلة لرد شرفه اليه وعن يقبل المذلة صاغراً فليس من الرجال حتى ولا من أشباه ربات الحجال ؛

لقد ضرب الانجليز — وهم خصماؤنا الألداء — مثلا للعالم كله باتحادهم في كل أمر حتى في الاثم والعدوان على حقوق الأمم فهلا نكون نحن المسلوبين متحدين ؟

ألا ان رجال الحزب المنتشرين في طول البلاد وعرضها متحدون متكاتفون يعملون بما أوتوا من قوة الايمان وبجميع الوسائل الشريفة لخدمة مبدأ الجلاء والاستقلال ولا تضيرهم همزات أولئك الضالين الذين لم يراقبوا الله لا في وطنهم ولا في عشيرتهم ولا في مستقبل أبنائهم متخذين مبدأهم « ومن بعدي الطوفان » متناسين أنه طوفان يجرف بسيله من هم في عالم الغيب من أبنائهم وأحفادهم أولئك الذين لا ذنب لهم الا أن آباءهم كانوا أعداء الاتحاد فقراء الوطنية مارقين منافقين ! لا تضيرنا تلك الطائفة التي ابتلي بها الوطن العزيز والتي لها نظراء في جميع البلدان . فليمض الحزب الوطني في سبيل أخلاصه الميمون وليصبر كما صبر من قبل وليجمع النفوس الأبية الكريمة تلك التي تدرك ان لا استقلال مع احتلال ولا صحة مع اعتلال — حول لواء الوطن المفدى — والله نصير العاملين...

الاتهام الكاذب

أنهم المستعمرون البريطانيون ونصراؤهم من زمن بعيد حزبنا الوطني الصادق في جهاده القومي بأنه حزب التطرف والتهور والجنون! حزب الثورة وإقلاق الراحة لأنه لا يفتر عن مطالبة انجلترا بجلاء جنودها عن وادي النيل!

حمل أولئك الغاصبون حملاتهم بادىء بدء في صحفهم ومن فوق منابرهم على « مصطفى كامل » ولعتوه بنعوت لو جمعناها لكانت سفرا من أضخم أسفار الزور والبهتان! فتارة كانوا يدعون عليه أنه من الباشوات الذين لا يرجون الجلاء إلا ليستبدوا بالفلاحين ويسوموهم سوء العذاب. وتارة كانوا ينادون بأنه يعمل للجامعة الاسلامية وأن التعصب الاسلامي بلغ حده الأقصى في وادي النيل. وأن انجلترا لو انجلت عنه لجرف سيل هذا التعصب الموهوم جميع المنافع العالمية فيه وانتقلت جراثيمه من مصر الى جميع البلدان المجاورة لها! وثالثة كانوا يذيعون أنه رحمه الله مسخر من قبل ذوي التيجان. ورابعة كانوا إذا أعيتهم الحيل والأباطيل وسدت عليهم سبل الأكاذيب الشيطانية والاضاليل الاستعمارية — صاحوا في العالمين بأن « مصطفى كامل » أدرك وحده الرق المصري وأن أمته متأخرة عنه في سبيل المدنية مائة وخمسين عاما! . . . . الى غير ذلك من التهم والادعاءات والاكاذيب حتى اذا ماذاعت الاحكام في قضية دنشواى — في ٢٨

يونيه سنة ١٩٠٦ -- انتهز المرحوم تلك الفرصة ودافع دفاعه التاريخى فى باريس ثم فى لوندرة وأقنع العالم عامة والرأى البريطانى خاصة بأن تهم المستعمرين قائمة على باطلهم وشرههم ووحشيتهم . وأن مصر لم تكن همجية ولا منحطة وأنها لاتروم من الحياة الا أن يعترف المتمدينون بأنها أمة مثلهم متمدينة وأنها تفضل الموت على أن تعامل معاملة الأرقاء التعساء باحتلال بلادها والتحكم فى مرافقها وهى التى كانت فى العصور الغابرة سيدة البحرين وأميرة الثقلين !

على أثر ذلك الدفاع المذكور فى كل جيل ربحت الوطنية المصرية ربحين عظيمين . الاول اعتراف الحكومة البريطية جهارا بأن المصريين متمدينون وانها لم تعاملهم ولن تعاملهم الا بعين الاحترام المتبادل بينها وبين أية امة حرة مستقلة متمدينة ! والثانى التفاف جميع المصريين المخلصين حول لواء الوطن . الا الذين فى قلوبهم مرض فأنهم بقوا فى خمولهم مستضعفين متخذين من الاحتلال قبلتهم ومن سلطانه معادهم ومعاشهم ضاربين بالمصلحة العامة والوحدة القومية والشرف الوطنى وجميع المسميات النبيلة عرض الأفق ناصرين المحتل على الوطنى وسلطان الاجنبى على سلطان القريب مفضلين أشباع بطونهم الزائلة على اللواء الرافع . لواء الحرية والاستقلال ساخرين من كل صوت يقول بلادى ولو كان فى حكم الأجنبى لهذه البلاد شقاء أبنائهم واحفادهم من بعدهم ! !

ولئك الذين ضلوا عن عصبة الوطن لم يكتفوا بالاستظلال بظل المعتدى على حقوقهم فى الوجود . بل أحلوا محل المحتلين من اذاعة التهم الباطلة والأراجيف السخيفة ضد الوطنيين الصادقين متسلحين بكل رزيلة فى الارض ليهدموا بناء الوطنية المصرية ولكن الله خذلهم كل الخذلان اذ باؤوا بخسران مبين وعلى الاخص عندما وقعت تلك الحوادث الاربعة الكبيرة التى لايزال صداها يرن فى آذاننا : حادث استقالة لورد كرومر طاغية الاحتلال ورحيله من البلاد فى ٦ مايو سنة ١٩٠٧ . وحادث اظهار الحزب الوطنى مظهره العلنى النظامى لثالث مرة فى تاريخ الوطنية المصرية فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ يوم ألقى « مصطفى كامل » خطبته الجامعة بمسرح زيزنيا بثغر الاسكندرية . وحادث العفو عن سجناء دنشواى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ . وحادث انتقال (مصطفى كامل) من دار الفناء الى دار البقاء والخلد والنعيم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨

خذل الله المستضعفين والمنافقين والمرتدين عن حظيرة الوطن فى هذه الحوادث الاربعة اذ توافى الناس أفوجا أفواجا الى محراب الحزب الوطنى للاندماج فى خدام مبادئه وأيقن الناس طرا أن الحق منصور ولو بعد حين !

ولما رأى المستعمرون أن الأمة المصرية بأسرها إلا أذنابهم القليلين اعتنقت مبادىء الحزب الوطنى التي سداها الاتحاد بين

عناصر الأمة وحتمها المطالبة بالجلاء واسترداد الدستور وأن أحزابهم وسياستهم فى مصر لا يقوون على مقاومة تيار الوطنية الجارف عادوا سيرتهم الاولى من دس الدسائس وإذاعة المفتريات بيد أنهم فشلوا كذلك كل الفشل .

وما انتهت الحرب بكوارثها ومظالمها وإرهاقاتها حتى عاد الحزب الوطني إلى العمل داخل البلاد بعد أن شتت إبان الحرب شمل رجاله الظاهرين بالابعاد والنفى والسجن وضغط المراقبة ! عاد الى العمل متصلا بحركة رئيسه المرحوم وأعضائه الذين أبلوا بلاء حسنا خارج مصر فى أثناء الحرب لتدرك الأمة غايتها من حرية كاملة واستقلال تام !

وما كان الحزب الوطنى يظن لحظة واحدة بعد جهاده الطويل وتضحياته العديدة وثباته على المطالبة بالحق الكامل وعمله المتواصل لاثارة أمته فى كل أمر غامض من ألاعيب الساسة أو حيل السياسة ما كان يظن أنه يبلغ الحقد بأحداث الوطنية إلى حد الافتراء والكذب على لجانه وكبار رجاله ! ما كان يظن أن يجد فى وسط هذا الجهاد الشريف ناسا متعلمين من بنى وطنه يعلنون الى الملأ تهما ضده لم يعلنها المحتلون أبدا تلك التى لو صحت لكان حزب المجرمين الخائنين !

فقد صاح صوت فى حفلة بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة قائلا

« أن الحزب الوطنى المصرى جمع اكتتابات لأنشاء كتاب فى دنشواى ولصنع تمثال « مصطفى كامل » ولتشييد مستشفى محمد فريد للعمال وقد بلغت الألوف المؤلفة من الجنيهات دون أن يرى الناس لهذه المقاصد أثراً !

وصاح صائح آخر بقسم شبرا قائلا إن الحزب الوطنى يعمل لبقاء الاحتلال فى مصر لأنه يطلب الجلاء قبل المفاوضة !

إننا ما كنا نعبأ بمثل هذه التخرصات إذ أن فى البلاد عقلاء يدركون ومؤرخين يدونون وشهود عدل يصدقون — لولا أن عزيمتنا قد صحت من زمن بعيد على أن تفند كل مايعزى إلينا من الأباطيل . لذلك أرجو من حلمكم الانصات التام لتسمعوا ردى على المعتدين وأنا واحد من المتهمين ولى حق الدفاع بأى حال !

رأى « مصطفى كامل » وهو على سرير الموت بعد أن أثمر جهاده باطلاق سراح الأحياء من ضحايا دنشواى أن يقيم حزبه فوق أرض المشانق البريطانية كتاباً يثقف أبناء من شنقتهم أو جلدتهم أو سجنتهم المحكمة الدنشوائية المخصوصة وغيرهم من أبناء فقراء القرويين . وليكون هذا المعهد الصغير أبلغ وأفصح رد على مدنية المستعمرين البريطانيين . فلبي المخلصون نداءه وبلغ دخل الاكتتاب فى خزانة الحزب ستمائة جنيه . ولقد وكلت لجنة الحزب الأدارية إلى حضرات عبد الله بك طلعت واسماعيل بك حافظ ومحمد افندى على المهندس

أمر شراء أرض المشانق وإقامة البنـاء عليها قبل الشراء وتم البنا وما على المتهمين المبطلين إلا أن يذهبـوا إلى أرض المشانق فى دنشواى ليروا عمل الحزب الوطنى إن كانوا للحق ناصرين وفى معرفة الحقيقة راغبين وليستغفروا الله على ما فرط منهم إن كانوا فى اتهامهم هذا مخلصين !

أما مسئلة التمثـال فقد فصلت تفصيلا فى الـكتاب الواصف لذكرى وفاة « مصطفى كامل » الثالثة عشرة (فبراير سنة ١٩٢١) وقد جاء فى صحيفتى ٣٨ و٣٩ ما نصه :

« أما ما ورد من الاكتتاب لتخليد أثر الفقيد العظيم وما صرف فى سبيل صنع التمثال فهذا بيانهما :

مليم	جنيـه	
...	٢١٠٠	ما ورد من اكتتاب اللواء
...	١١٥٠	ما ورد من اكتتاب الجريدة
...	٣٢٥٠	المجموع
...	٢١٢٠	مصاريف صنع التمثال ونقله إلى مصر
...	١١٣٠	الباقى
...	٣٧٠	أرباح متجمعة لغاية شهر مايو سنة ١٩١٤
	١٥٠٠	جنيه الباقى

« ولقد أودع مبلغ الألف والخمسمائة جنيه الباقية من هذا الاكتتاب لدى حضرة الاستاذ محمود بك أبى النصر المحامى ليصرف بأمره وأمر حضرة على فهمى كامل بك ثمنا لعين مثمرة تكون وقفا على التعليم المجانى بمدرسة « مصطفى كامل » ولا يزال هذا المبلغ عند حضرته حتى اليوم يدفع أرباحه السنوية وقدرها تسعون جنيها لمعاونة التعليم المجانى بكلية « مصطفى كامل ... »

هذا هو حساب الاكتتاب للتمثال وهذا هو الباقى منه لدى حضرة صديقنا الاستاذ الامين محمود بك أبى النصر يردان أبلغ رد على مفتريات المعتدين ! ولقد رأى الناس التمثال ويرونه منصوبا فى صحن كلية « مصطفى كامل » يفقأ أعين المكابرين !

على أن اللجنة التى ألفت لاقامة هذا الأثر لم تكن من الحزب الوطنى وحده بل إنها تألفت من جميع الاحزاب برئاسة المرحوم المبرور اسماعيل صبرى باشا وعضوية الاحياء والمرحومين محمد علوى باشا ويوسف صديق باشا ومحمد بك فريد والياس بك عوض وابراهيم بك رمزى واحمد بك لطفى السيد وجندى بك ابراهيم وحسن باشا عبد الرازق وسنوت بك حنا . وعبد العزيز بك فهمى وعمر باشا سلطان ومحمود بك أبو النصر ومرقص بك حنا وويصا بك واصف وفؤاد بك سليم وعلى فهمى كامل بك ! ! !

وبين هؤلاء الاعضاء ثلاثة من كبار رجال الوفد المنتسب اليه القاذفان وهم حضرات سنوت بك حنا ومرقص بك حنا وويصا بك واصف!!

وأما مسئلة المستشفى فقد شرحها فى الصحف أمين صندوقها حضرة الوطنى الصادق أخينا العزيز صاحب العزة محمد بك أحمد الشريف .

مسئلة الجلاء قبل المفاوضة

لم يكن الحزب الوطنى واهما عند ما اختط لنفسه المطالبة بالجلاء قبل المفاوضة . بل إنه اعتمد على التاريخ والحقيقة والحس فى مجادلة المعتدين على كيان بلاده ! اعتمد على ما وصف به ساسة بريطانيا فى كل زمان من مراوغتهم فى المفاوضات ليكسبوا وقتا عسى أن تخدمهم الفرص بتحقيق أطماعهم الاستعمارية وبلوغ غايتهم السياسية ! اعتمد على أن الانجليز لا يرمون بالمفاوضات معنا إلا إلى صلح يكون لهم مغنما وعلينا مغرما ! اعتمد على أنهم لا يتخذون من المفاوضات الا وسيلة للتفرقه بين أبناء شعبنا ليسودوه عملا بقاعدتهم المشهورة « فرق تسد » ! اعتمد على عدم ثقته التامة بنجح مفاوضات يضع الطرف السالب قواعدها فى مشروع آمرا الطرف المسلوب بالأذعان اليها ! اعتمد على حنث ساسة انجلترا فى أيمانهم واخلافهم وعودهم وعهودهم التى قطعها تاجهم وحكوماتهم أمام العالم عامة وتجاه مصر خاصة وقد بلغت الى أكثر من ستين وعدا وعهدا وحلفا لينجلوا

عن وادى النيل متى استتب الأمن وعادت السكينة سيرتها الاولى! فلما رفرف الهدوء فى كل مكان بدلوا الحلف بالبقاء والوعد بالمراوغة والعهد بأن لهم فى مصر منافع ممتازة ! اعتمد على القواعد السياسية القائمة على التجارب العديدة والخبرة التامة من أن اشتغال أمة مهضومة الحق بمفاوضات لا تجدى نفعا مع غاصب هذا الحق ليس معناه إلا تبريد حرارتها الوطنية وتحويل نفسيتها إلى قبلة غير التي يجب على الزعماء المخلصين البعيدى النظر أن يوجهوها إليها ! اعتمد علي أن واجب السالب الحق الراغب فى رده إلى صاحبه أن يقدم دليلا حسيا على حسن نيته ! اعتمد على سوء طوية الانجليز وأنهم لا يرمون بالمفاوضات إلا إلى أن يربحوا من ذلات المفوضين المصريين ما يعطيهم لقب الممتازين والمحقين ! اعتمد على هذا وغيره مما يطول شرحه فى مطالبته بالجلاء قبل أى اتفاق اذ أن الاتفاق لا يكون طبعا على الاحتلال والا كان خيانة صريحة !

ولقد أيدت الحوادث صدق نظر الحزب الوطنى فى خطته المثلى! ألم تفشل مفاوضات الوفد مع لورد ملنر ؟ أبلغت بها البلاد الى اعتراف انجلترا بأن جلاء جنودها عن وادى النيل واجب فى الحال وأن احتلال هذا الوادى لا يستوى واستقلاله ؟ كلا بل علي الضد فأن انجلترا تمسكت بصيانة مواصلاتها الامبراطورية بمصر أى بمداومتها على الاحتلال !

واذا كانت الحكومة البريطانية لم تقبل شرط الجلاء لا فى مفاوضة الوفد المصرى ولا فى مفاوضة الوفد الرسمى ولا فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ذلك الذى أقره البرلمان البريطانى فى ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ . فهل تكون خطة الحزب الوطنى خاطئة ازاء هذا الأمر المحسوس اذا كانت قائمة على المطالبة بالجلاء على أى حال ؟

لامنا اللوام عند ما دخل الوفد فى مفاوضة مع لجنة ملنر فى عام ١٩٢٠ لوقوفنا فى وجهه ومجاهرتنا بأنها كارثة سياسية . قائلين لنا ان من الحكمة أن نسير مع الكذاب الى باب الدار ! فسألنا للوامنا الهداية وانتظرنا معهم نتيجة المفاوضة التي ما شككنا فى فشلها المؤكد وقلنا عسى المجذون للمفاوضة القصيرو النظر يعرفون الكذاب حق معرفته بعد أن ساروا معه الى باب الدار ! حتى اذا ما جاء مندوبو الوفد حاملين مشروع لجنة ملنر تلك التي حفيت أقدام أعضائها فى مصر ليفاوضوا الامة ففشلوا ! أدرك المصريون قاطبة باديء بدء نتائج المفاوضة التى شطرت الامة شطورا ! ثم أيقنوا كذلك بعد أن نشر تقرير تلك اللجنة الانجليزية خلق المفوضين المصريين ودهاء المستعمرين البريطانيين وكيف أن الاحتلال ما كان موضوع مناقشة جدية بل كان فى موضع البقاء الدائم ولو فى جوار القناة ! ألم يصف سعد باشا نفسه السياسة البريطانية بمناسبة هذه المفاوضات

أنها سياسية مراوغة ؟ ألم يؤكد الوفد للملأ كله بأن نصيب المفاوضة الرسمية التى كان على رأس وفدها عدلى باشا سيكون الفشل كل الفشل ناطقا بما نطق به الحزب الوطني من قبل عند ما فاوض هو لجنة ملنر ؟

يقول الذين لا يزالون يحبذون المفاوضات بعد هذه الدروس الواعظة وهذه الوقائع المستقرة ! علام عول الحزب الوطنى لتحقيق الجلاء اذا لم تكن ثمة مفاوضة ؟ وكان واجبا عليهم أنفسهم أن يتساءلوا عما تؤدي اليه المفاوضة بعد أن تكررت وفشلت سواء أكان سبب الفشل أخطاء المفوضين المصريين أم سوء طوية الانجليز ! وبعد أن انضم برلمان انجلترا الى حكومتها معلنا للعالم شروطا للمفاوضة مع مصر ليس أولها الا تحتيم صيانة المواصلات بين أجزاء الامبراطورية الانجليزية فى نفس مصر ! وما هذا الشرط إلا القضاء باحتلال الجنود البريطانية الدائم لوادى النيل برمته !

لقد كان خليقا بأنصار المفاوضة بعد أن لقنتهم الحوادث من أطماع المستعمرين ما لقنت . وبعد أن أرهقتهم سياسة الغاصبين ما أرهقت . وبعد أن تجرعت الكنانة من جراء المفاوضات ورئاستها وقيامها بلا أساس غصصا من الآلام والاحزان ما تجرعت . كان جديرا بهم أن يضعوا للامة بيانا مفصلا لمزايا المفاوضة عسى أن نجد فيها مزايا أخرى لا يستهان بها فنقدم عليها مرة أو عدة مرات حتى لو

قضينا أعمارنا فى مفاوضات ! نعم كان حقيقا بهم أن يعربوا اللامة عن مزايا المفاوضات التي يضع السالبون أساسها الاستعمارى بعد أن فشلوا فيها وعادت على مصر الأسيفة بالخسار والتنار !

فشلت المفاوضات مرتين وتفشل بحكم المقدمات حتى لو سار عشاق المفاوضة مع الكذاب الى باب الدار مرات ناسين حديث الرسول « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ! انها لا شك فاشلة مادام سوء الطوية متوافرا لدى ساسة انجلترا التي ما قامت حياتها إلا على اغتيال حقوق الأمم

أنصار المفاوضة : لو كنا نعتقد مثلكم أن المفوض المصرى قادر على تغيير النفسية الانجليزية بأن يجعل من طمعها زهدا ومن استعمارها عدلا ومن احتلالها جلاء ومن تعنتها اخلاصا لنادينا بها قبلكم ولسارعنا اليها لأننا ولله الحمد من عشاق الحرية والاستقلال الراغبين بكل جوارحنا فى تبديل الحال غير الحال :

تتهموننا بأننا جامدون فى سياستنا نطلب باللسان ماهو من عمل القوة ونتغنى بالخيال لتحقيق الاستقلال ولو رجعتم الى ضمائركم لأرحتم نفوسكم وانضممتم الينا لنوحد جهودنا ولنداوم على صراخنا وما قوتنا الا مستمدة من حقنا فأن نحن طالبنا به متآزرين تجلت لخصمائنا قوتنا وارادتنا وأدركوا أننا لم ننس سبب الخصومة التي قامت بيننا وبينهم . خصومة الاحتلال ! وأن قلوبنا لا تصفو

اليهم وأصواتنا لاتخفت وغليان صدورنا لا يسكن الا اذا أزالوا العداوة بأزالة هذا الاحتلال!

أتتهم بأننا نعمل لبقاء الاحتلال وقد أزعجت المحتلين أصواتنا وأقلقتهم صرخاتنا منذ عشرات السنين مجاهرين بوجوب الجلاء أيام كان نصف أمتنا الحاضرة — على أقل تقدير — أجنة فى الأرحام؟

لقد طالبنا انجلترا بجلائها عن ديارنا ونطالبها به مادامت قلوبنا نابضة ولا تفتر عزيمتنا ولا يكل جهدنا صابرين متصابرين! نطالب به لا بالمفاوضة التي يضع أساسها الغاصب أو يدير حركتها السالب أو تنتهى بطلبه منا اقرار الاحتلال بصفة شرعية فرحين بما نسميه مزايا لا يستهان بها وما هى الا كسراب بلقع يحسبه الظأن ماء! بل نطالب به بشمم وأباء على مسامع ومرأى العالم عامة والأمة الانجليزية خاصة. نطالب به بكل قوتنا وبأعلى اصواتنا عالمين أن الاحتلال من الاستقلال سم قتال وشر ووبال ومن لا يدرك هذه البداهة فأنه فى خبال وضلال واعتلال!

لو أقر واحد من رجال الحزب الوطني الذين تلقوا دروس الوطنيه السليمة على مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى أطواد الوطنية فى العالم — أن ينتقل الاحتلال الى جوار قناة السويس أو الى أى ناحية من نواحى وادى النيل بعدت أو قربت تطرفت أو توسطت لاعتبرناه مختلا معتوها أو خائنا أثيما!

ان الاحتلال الأجنبي من الشرف الوطني كجرثومة خبيثة من الجسم الحيوي إن احتلته اسقمته فأقعدته فأماتته !

لذلك كان واجبا على كل نفس مصرية تؤمن بالله الواحد القهار أن تدفع جرثومة الموت عنها وعمن يحيطون بها بكل جهدها وأن تستغيث بمهرة الاطباء المخلصين وأحذق الصيادلة المدققين وأيقظ الممرضين الساهرين ليدفعوا عنها وعن أهلها شرها المستطير والله بعباده لطيف خبير وللعاملين نصير !

فيا أطباء الشرف الوطني ويا صيادلة الدواء القومي ويا ممرضي الوطن المصري راقبوا الله في هذا المريض العزيز الذي لا عز لكم الا بعزه ولا وجود لكم الا بحياته . ذلك تراث أبائكم الباقي ! ذلك هو وطنكم المستغيث فهل من مغيث ؟ التفوا حوله بقلوب ثابتة وعزائم ماضية وواسوه متساندين ليشفى من داء الاحتلال وأعلموا أنكم لو خذلتموه بانصرافكم الى المهاترات والانقسامات دون توحيد كل قواكم للاخذ بناصره لخذلتم أنفسكم وابناءكم من بعدكم ولحقت عليكم اللعنة يوم الدين !

الوزارات المصرية

لقد شرحنا مرارا وتكرارا نظرية الاستقلال الفعلي واليوم نقول بملء أفواهنا وباعلى أصواتنا أنه بعد أن تم الصلح بين الحلفاء وبين تركيا أصبحنا مستقلين استقلالا تاما من وجهة العدل والقانون لا سيادة

لدولة علينا ولا تابع ولا متبوع الهم الا اعتداء انجلترا على هذه الاستقلال باحتلال جنودها للبلاد وادارتها للسودان !

فالجلاء الحربى والادارى عن وادى النيل من أقصاه الى أقصاه هو الوجه الاساسى لاستقلالنا الفعلى وهو الغرض الاسمى الذى يجب علينا الجهر به فى كل زمان ومكان وبذل حولنا وطولنا لتحقيقه حتى نتخلص من عار ثقيل مذل مميت عار الاحتلال وأثره الفعال فى تسيير مرافق البلاد . وما ازالة العار الا من أقدس الفروض

ان بالاحتلال العسكرى الجنائى احتلت انجلترا مرافقنا المدنية وسيرت وزاراتنا كما شاء هواها تسييرا شائنا . تسيير الوصى للقاصر فى كل أمر من أموره!

هذه هى الحقيقة التى لا يستطيع واحد ممن تولوا منصب الوزارة فى عهد الاحتلال أن يجهر بضدها مدعيا أنه كان فى وزارته يعمل بأرادته لخير بلاده وأمته !

ان الوزير الذى يدعى غير ذلك ويجهر بأنه كان حرا فى وزارته إنما يسجل على نفسه العار الأبدى بما أتاه ضد أمته من ضروب الظلم و لأحجاف بمرافقها . . . اللهم الا الذين فضلوا الاعتزال على الامتثال والاباء على الخنوع والوطنية على الاستسلام واستقالوا شرفاء لنزعتهم الحرة مخلصين لله وللوطن ولضمائرهم الطاهرة !

نعم . ما تألفت وزارة مصرية منذ احتلت الجنود البريطانية

بلادنا إلا بإرادة المحتلين أنفسهم وكانا نذكر تلغراف لورد جرنفل وزير خارجية انجلترا الورد كرومر فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ يوم ألف المرحوم حسين فخرى باشا وزارته . . . ذلك التلغراف الذى ختم فيه على عرش البلاد ألا يؤلف وزارة الا اذا حازت رضا عميد انجلترا فى مصر ! وطلب اليه عزل وزارة فخرى باشا فعزلت بعد أن لبثت أربعا وعشرين ساعة فقط !

يدعى المدعون أن الوزارة تعمل الآن حرة وأن البلاد قد أصبحت مستمتعة باستقلالها المنشود ! فلو كان قولهم حقا أكانت الوزارة وهى على أبواب البرلمان توافق على قانون التضمينات لحماية الاجراءات العسكرية البريطانية فى مصر منذ تسعة أعوام ؟ وهل كانت مصر مستعمرة انجليزية أم كانت مع انجلترا فى حرب لأعطائها هذه التضمينات ؟ أكانت الوزارة بأى حال تقبل اتفاقا يحرم على أبناء البلاد الذين نال منهم أذى الاحكام العرفية ما نال أن يطالبوا بأى تعويض ويترك بعض من حكمت عليهم المحاكم العسكرية البريطانية بأحكام مختلفة فى أمور سياسية تحت رحمة الحكومة الانجليزية ! ويبيح لانجلترا استعمال الأراضي التى وضعت عليها يدها غدرا وغصبا الى غير ذلك من الأمور التى لا يبيحها شرع حتي ولا شرع الأحكام العرفية فى البلاد المتمدينة ؟

نعم . إن الغاء الاحكام العرفية أمر ألح فى طلبه كل مصرى

ولقد كان الغاؤها قاب قوسين أو أدنى لو أن الوزارة نظرت الى الحالة السياسية الكونيه بمنظار الساسة المحنكين لتدرك أن الصلح بين الحلفاء وتركيا قريب وأنه متى تم تصبح حالة الحرب بينهما غير واقعة تلك الحالة التى بسببها بسطت الاحكام العرفية الانجليزية ؟ ألم يرد رؤساء المحاكم العسكرية الانجليزية على الدفاع بأنها محاكم مختصة مادامت حالة الحرب موجودة بين انجلتر وتركيا ؟

يقولون إن ثمن قانون التضمينات وغيره من القوانين العديدة التي صدرت فى هذه الأيام والتي لاتستوى وروح الحرية . وماقدمته الخزانة المصرية بسخاء لم يذكره التاريخ من قبل — من المكافآت الباهظة للموظفين الانجليز — هو إطلاق سراح بعض المسجونين السياسيين والسماح للمنفيين بأمر السلطة البريطانية بالعودة إلى البلاد! فهل الأمة التى بلغ عددها بسودانها عشرين مليون نسمة يضيق عليها الخناق ويشد منها الوثاق باتفاقات وقوانين مثل التى أقرتها الوزارة لتخليص السجناء والمنفيين الذين ما كان جرمهم فى نظر المحتلين إلا المناداة بالجلاء واستقلال البلاد التام وعدم الاعتراف لانجلترا بأية سيطرة أو بأى حق فى وادى النيل ؟

ألا إن وزارة مصرية حرة أبية تحترم صوت الشعب الذى هو صوت الله وتنزل فى أعمالها على إرادته وتراقب الله فى مرافقه وفى

وكالتها عنه ـ ما كانت تتعجل بمثل هذه العجلة التي لا أسميها إلا مهارة المحتلين واستضعاف الوزراء المصريين !

ليس فى حوادث الماضي بعيداً كان أو قريبا إلا دروسا بليغة وعظات بالغة لمن يريدون حقيقة نجاة وادى النيل وتخليصه من عسف الاحتلال وقد أخذ كل سفينة غصبا وضرب الأمة ببعض أبنائها ضربات موجعات فى مرافقها وحقوقها وحريتها واستقلال بلادها . والذى لاشك يضربها مادام فيها !

وليس شىء فى الوجود كذلك أشد خطرا على الوطنية من إهمال الحقيقة ونسيان عبر التاريخ وحوادثه ؛ وأنه إذا كانت وطنيتنا اليوم قوية فلا ريب فى أنها تكون أقوى منها إذا نحن وضعنا أمام أبنائنا صحف الماضى السوداء ليحدقوا فيها وليعوذوا بالله من شرورها حتى لا يحسنوا الظن لحظة بالمحتلين الذين أساؤا اليهم بهتك شرفهم وخنق وطنهم والضرب على أنفسهم الحرة بمعاول الاستبداد والاستعباد !

إن الحوادث نذر فمن اعتبر بسيئها واقتدى بحسنها متجنبا غثها آخذاً بثمينها كان المثل الأعلى فى الوطنية الصادقة المحققة ! وما قال أحد فى العالمين أن امرأ حراً أبياً شريف النزعة موفور الكرامة يعادى عدو أمه يوماً ويصفو له يوماً آخر ! كذلك الأمة الراغبة فى حياة المجد لا حياة اللهو لاشك تميز بين عدوها وصديقها ولا تتوانى

فى الحكم على من أرهقوها فى أمرها حكماً شديداً قاسياً بلا رحمة ولا شفقة !

ليست الامة الا وحدة تقدمت وحدات يأتى بها الغيب فكل تسامح فى الاعتداء على كيانها الوطنى ومرماها الاستقلالى ليس تسامحاً فى حقها فحسب بل انه لامحالة تسامح جنائى فى حقوق أبنائها المستقبلين كذلك !

فأن قال لكم قائل « ان أمة فى الوجود عالمة كانت أو جاهلة نسيت أعمال المعتدين على كيانها . . . . فقولوا له : « أنك لاتقول الا كذباً ولا تذكر الا بهتانا . . . »

واذا أدعى مدع أن حكومة تحت وصاية حكومة أخرى تستطيع التصرف بحرية فى مرافق بلادها دون تدخل الوصية عليها فاصرخوا فى وجهه بكل قواكم وقولوا له : « ليس فى أية شريعة ان يتصرف القاصر فى وجود الوصى . . . . . »

واذا أذاع مغرض ان الانجليز باحتلالهم بلادنا قد أحسنوا الينا فاضربوا بقوله عرض الافق وانشروا فى الورى حال مرافقكم قبل الاحتلال وبعده من دين عام وعلم وادارة وصناعة وتجارة وتقنين ودستور واستقلال ليدرك أن حادثة واحدة كحادثة دنشواى لكافية للحقد الدائم على هذا الاحتلال الذى ما كان الا توطئة لاستغلالنا واستعبادنا وإعدامنا !

طالبوا بالجلاء كما طالب به «مصطفى كامل ومحمد فريد» ورجال

الحزب الوطني وكما يطالب به أمراؤنا المحبوبون وكل غيور في البلاد لا ؛ عنوان الاستقلال ورمز جميع الامانى الوطنية والله فى عون المخلصين

البرلمان

كان لمصر برلمان ألغاه المحتلون منذ واحد وأربعين عاما مدعيين باطلا ان استعداد الامة المصرية لم يؤهلها بعد للاستمتاع بحكومة نيابية ! ادعوا ذلك بعد أن أطرى ساستهم وصحافتهم أعمال ذلك البرلمان وما قام به من تشريع أو أصدره من قرر ! وما ذلك الا ليسيروا مرافق البلاد كما يشاء هواهم وليستغلوا جهود شعب كريم كشعبنا كان لاجداده الاولين القدح المعلى فى التشريع والفلسفة والسمو الاجتماعى ولقد أخذت عنهم اليونان القديمة وآشور وبابل والرومان وغيرهم قواعد الحكم وأصول القوانين والنظم والمعاملات !

تدخل المحتلون فى جميع شؤوننا وبلغوا الى الاحتلال المدنى بعد الاحتلال العسكرى ! ووضعوا أيديهم على متملكاتنا العامة وعلى تثقيف عقولنا وتهذيب نفوسنا وعلى قوانا الحربية والبحرية وعلى قوانيننا وكل ماينهض بمرافقنا ولعبوا بها الادوار التى تعرفونها جميعاً ثم سلبوا من مصر ادارة سودانها باسم الاصلاح والاحتلال الجنائى هال الوطنيين الصادقين هذا المصير وقالوا جميعاً الى أى طريق نحن مسوقون ثم برز من « بينهم مصطفى كامل » ذلك الذى نادى فى مقدمة

المصريين باسترداد حق الامة فى البرلمان لتشرف بنفسها على أمورها العامة المنتهكة الحرمة المسلوبة الحياة !

وعلى أثر وفاته نادى الحزب الوطنى بالدستور وأقام له المظاهرات فى كل مكان متحملا الاذى غير هياب ولا متردد حتى رددت البلاد صوته من أقصاها الى أقصاها ووكلت اليه تقديم العرائض لعرش البلاد بعد أن وقع عليها ملايين المصريين فقدمتها لجنة من رجال الحزب برئاسة رئيسه المرحوم محمد فريد بك فى عدة مجلدات ضخمة!

ولقد علا كذلك نداء الحزب الوطنى والامة من ورائه تؤازره كل المؤازرة بعد أن أخذ العثمانيون دستورهم فى عام ١٩٠٨ ! وما زال الحزب يضرب على هذه النغمة طالبا رد حق الامة المغصوب فى البرلمان اليها حتى حققت الايام نداءه وصدر الدستور فى هذا العام وأصبحت الصلة بين الامة وحكومتها هى الصلة النيابية التى أعزت فى الغرب تيجانا ونهضت بأمم ما كانت من قبل شيئا مذكورا أيام كان المصريون أساتذة العالم كله !

أذاع الانجليز فى كل مكان قبل الحرب الاخيرة ان الحزب الوطني المطالب بالجلاء والدستور لا يمثل الامة . ثم اذاعوا كذلك بعد الهدنة بأن الوفد المصرى ليس وكيلا عن الامة لذلك نصحوا لعرش البلاد بأن يعيد الحكم النيابى لتمثيل الامة فى برلمانها الذى يقرر مصيرها ويعقد الاتفاقات السياسية ويقنن القوانين باسمها!

نعم ان هذا الدستور ناقص من بعض الوجوه وما كان للحزب الوطنى ان يعنى به لولا تخوفه من أن يحشر فى البرلمان المستضعفون والجاهلون فيجهزوا بسلاح النيابة على مابقى للامة من أمل !

لذلك رأى بعض رجال حزبنا أن يلبوا نداء من دعوهم لتمثيلهم وهم إذا تقدموا للانتخابات فانما يتقدمون اليها بقلوبهم الطاهرة وشجاعتهم الوطنية غير حاملين على أحد أو مزاحمين أحداً . وكل ما يرمون اليه إذا قدر وانتخبوا فى البرلمان هو أن يرفعوا أصواتهم مع المخلصين باسترداد الحق المغصوب كاملا ويؤلفوا بين القلوب المتنافرة حتى تنقذ البلاد مما هى فيه وتنهض النهضة المرجوة .

إن رجال الحزب الوطني وقد خلقوا أحرارا من دأبهم احترام الحرية الشخصية فلا يستبدون بالأمر ولا يستخدمون وسائل الارهاب لادراك ضالتهم فى الانتخابات ولا يستعينون بأى جاه ولا بأى تضليل ليكون نصيبهم منها وفيرا وهم الذين ما انفكوا ولا ينفكون عن خدمة الأمة سواء أكانوا أعضاء فى البرلمان أم لم يكونوا.

أنهم يعتمدون على الله الذى يحق الحق ويزهق الباطل! يعتمدون على ماضيهم الحافل بخدمة البلاد وعلى وطنية الأمة الصادقة! يعتمدون على الذين خبروهم منذ زمن بعيد وعرفوا فيهم صفات الوطنيين المخلصين الذين يفضلون الموت على النزول عن أى حق من حقوق البلاد المقدسة ! يعتمدون على الذين انتخبوا الكثيرين منهم فى الايام

الغابرة لمجالس البلاد وعضدوهم فى مؤتمراتهم وأعمالهم ومراميهم وهتفوا لهم فى كل زمان ! يعتمدون على الميثاق الوطني الذى أعلنوه الملأ وحاز رضاء الأمة بأسرها وعملوا ويعملون لتحقيقه بكل ما أوتوا من علم وثبات !

لقد ضرب الحزب الوطنى فى ماضى الأيام المثل الأعلى للوطنية الصادقة فما تملكت الأنانية نفوس رجاله فى أى انتخاب تقدمت اليه البلاد . ولا غرتهم قوتهم لاحتكار المنافع العامة أو وقفها عليهم دون غيرهم ممن لم ينتسبوا لحزبهم وما كان انتخاب سعد زغلول باشا عضوا فى الجمعية التشريعية الا بفضل جهود هذا الحزب الذى مهد له السبيل باجتماعاته العديدة فى القاهرة . ذلك لأنه حزب الاخلاص والابتعاد عن حب الذات فلا يعمل الا للنافع ولا يقر إلا الحق شأن لوطنيين الصادقين الذين لا يبغون إلا ادراك الغاية على أية يد كانت وبأى رجل كائنا من كان

واذا صح لى أن أنصح للمندوبين الثلاثينيين فأنى أتوسل اليهم كجميع الوطنيين بحق الله والوطن أن يتخيروا الاصلح من الرجال البرلمانيا وأن يأخذ كل منهم على من يرغب فى انتخابه عهدا بأن تكون القاعدة السياسية التي ينسج على منوالها فى البرلمان هى الجلاء العسكرى من وادى النيل برمته والجلاء الأدارى عن السودان وما

يتبعه والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه !

ان ظرفنا الحاضر لمن أعسر الظروف فان نحن سُسْنَاه كما تحتم الوطنية المتحدة عناصر وعوامل ملكنا السبيل على خصومنا وأنقذنا مستقبلنا وضمنا لبلادنا استقلالها ولأمتنا حريتها وأن نحن تخاذلنا — لا قدر الله — فتقودنا الأنانية وتسودنا همزات الشياطين خسرنا كل شيء وندمنا ولات ساعة مندم !

أجل . أن الجنود الانجليزية لا تزال فى بلادنا . والدور الذى تلعبه معنا اذا نحن انقسمنا على أنفسنا داخل البرلمان وخارجه لاشك يدركه كل من وقف على تاريخ الاستعمار البريطانى . وبعبارة صريحة تقضى على بلادنا ومستقبل أبنائنا اذا نحن تقاتلنا فى سبيل النزعات المتضاربة والمآرب الذاتية وحب الرئاسة !

لنتق الله من اليوم فى مستقبل بلادنا وليقرع كل منا الحجة بالحجة فى جو هادىء وبكل وسيلة شرعية ولنشمر عن ساعد الجد ولننتخب الأكفاء لبرلماننا وما أقصد بالكفاءة العلم وحده بل أرمى بوجه خاص الى اخلاص الرجال ذلك الذى يتبينه كل وطنى من سجل أعمالهم الماضية ....

ولتكن الصحافة فى حكمها على الأشخاص والاشياء عادلة غير متحيزة لفريق دون فريق اذ هى القوة المراقبة لنجاة سفينة الوطن والتبعة الملقاة على عواتق محرريها لكبيرة هائلة

ان العالم كله ناظر الينا بعد أن نصح لنا ساسته المخلصون لقضيتنا بالاتحاد التام — ليقول كلمته الأخيرة فى أهليتنا وكفايتنا للحكم النيابى فلنبرهن لهم أننا كنا ولا نزال خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وأن وطننا فوق شخصيتنا فلا نميل مع الهوى لنرجح نفعنا على نفعه المقدس

فلتتقدموا أيها المصريون الى الانتخابات متقين الله فى وطنكم واضعين نصب أعينكم منافعه المقدسة مكررين ما قاله «مصطفى كامل»: « يوجد بعض أمكنة وبعض ساعات من نام فيها فقد مات ..... ومن يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبق أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان »

هذا وأشكر لكم من سويداء قلبى احتفاءكم بشخصى الفانى سائلا الله الكريم أن يوفقنا جميعا لخدمة وطن لا عز لنا الا بعزه ولا حياة لنا الا بسؤدده ورفعته وأن يهبنا جميعا من لدنه قوة ورشدا أنه نصير العاملين

بيان أهم الخطب التى القاها

على فهمى كامل بك

منـذ عام ١٨٨٩

العدد	الجهة	التاريخ	موضوع الخطبة
١	القاهرة	٢٠ يناير ١٨٩٩	قوة الاتحاد
٢	»	١٦ فبراير ١٨٩١	خدمة الوطن
٣	سواكن	٢٧ يناير ١٨٩٣	الصدق فى العمل
٤	القاهرة	٣ ابريل ١٨٩٥	مستقبلنا
٥	سواكن	٨ يونيه ١٨٩٥	التضامن القومى
٦	القاهرة	٢٧ مارس ١٨٩٧	النفع العام
٧	»	٢٤ يناير ١٨٩٩	الماضي والمستقبل
٨	الزقازيق	١٦ اغسطس ١٩٠٣	السكة الحديدية الحجازية
٩	القاهرة	١٤ سبتمبر ١٩٠٧	الاحتجاج على الاحتلال
١٠	الاسكندرية	١٤ مايو ١٩٠٨	الرد على تقرير المعتمد البريطانى
١١	الاستانة	١٩ أغسطس ١٩٠٨	الحرية والدستور
١٢	المدينة المنورة	أول سبتمبر ١٩٠٨	العمران والدستور

العدد	الجهة	التاريخ	موضوع الخطبة
١٣	دمشق	١٠ سبتمبر ١٩٠٨	حقوق الشعب
١٤	بيروت	١٨ سبتمبر ١٩٠٨	الحرية والرابطة الشرقية
١٥	القاهرة	٢٥ ديسمبر ١٩٠٨	الجلاء والاستقلال
١٦	»	٢٧ مارس ١٩٠٩	الاحتلال وسياسة التعليم
١٧	»	٢٣ يوليه ١٩٠٩	الدستور والحرية
١٨	جنيف أرسلت	١٤ سبتمبر ١٩٠٩	السودان والجيش المصرى
١٩	القاهرة	١٤ سبتمبر ١٩٠٩	الاحتجاج على الاحتلال
٢٠	»	٧ يناير ١٩١٠	حالة مصر المالية والاقتصادية
٢١	»	١١ يناير ١٩١٠	الاشتراكية فى الاسلام
٢٢	»	٤ فبراير ١٩١٠	قناة السويس
٢٣	»	٣٠ مارس ١٩١٠	الحرية والاستقلال
٢٤	»	١٤ ابريل ١٩١٠	(التربية والتعليم)
٢٥	بروكسل	٢٤ سبتمبر ١٩١٠	(نتائج الاحتلال)
٢٦	القاهرة	٣ يناير ١٩١١	(الأحسان فى الاسلام)
٢٧	»	٢٠ يناير ١٩١١	سياسة الاحتلال
٢٨	»	١٢ مارس ١٩١١	تعليم البنات
٢٩	الاسكندرية	٢٨ يوليه ١٩١١	مظالم المحتلين

العدد	الجهة	التاريخ	الموضوع
٣٠	القاهرة	١٤ سبتمبر ١٩١١	الاحتجاج على الاحتلال
٣١	»	٢٢ مارس ١٩١٢	الاحتلال الجنائى
٣٢	»	٢٨ أبريل ١٩١٢	فساد التعليم الحاضر
٣٣	»	١٤ سبتمبر ١٩١٢	الاحتجاج على الاحتلال
٣٤	»	١٤ سبتمبر ١٩١٣	سياسة الغاصب
٣٥	»	٣ أكتوبر ١٩١٣	وجوب اصلاح التعليم
٣٦	»	١٢ ديسمبر ١٩١٣	التعليم والانتخابات للجمعية التشريعية
٣٧	»	٤ مارس ١٩١٤	السياسة المرهقة
٣٨	»	١٠ فبراير ١٩١٩	ذكرى مصطفى كامل والاستقلال
٣٩	»	١٩ ديسمبر ١٩١٩	تأبين فريد بك
٤٠	»	١٣ فبراير ١٩٢٠	ذكرى مصطفى كامل والمسئلة المصرية
٤١	»	٥ مايو ١٩٢٠	العمال والصناعة
٤٢	»	١٨ نوفمبر ١٩٢٠	الاحتلال وذكرى فريد بك
٤٣	»	١١ فبراير ١٩٢١	الاستقلال وتمثال مصطفى كامل

العدد	الجهة	التاريخ	الموضوع
٤٤	جيف (فرنسا	٢٤ أكتوبر ١٩٢١	المسئلة المصرية
٤٥	باريس	٢٣ ديسمبر ١٩٢١	» »
٤٦	مونمورنسي فرنسا	٢٩ يناير ١٩٢٢	مصر المعذبة
٤٧	مجلس الشيوخ الفرنسي	١٠ فبراير ١٩٢٢	المسئلة المصرية
٤٨	باريس	١٢ فبراير ١٩٢٢	ذكرى مصطفى كامل
٤٩	»	٢٣ فبراير ١٩٢٢	مذكرة فى المسئلة المصرية
٥٠	أورسى فرنسا	١٧ مارس ١٩٢٢	الاقليات والأجانب فى مصر
٥١	جنوه (ايطاليا	٢٠ ابريل ١٩٢٢	المسألة المصرية
٥٢	طور (فرنسا	٢ مايو ١٩٢٢	السودان المصرى
٥٣	كونتفروات	٤ يونيه ١٩٢٢	المسئلة المصرية
٥٤	باريس	٤ يوليه ١٩٢٢	» »
٥٥	مجلس النواب الفرنسى	٧ يوليه ١٩٢٢	استقلال مصر
٥٦	باريس	١٤ سبتمبر ١٩٢٢	الاحتجاج على الاحتلال
٥٧	برلين	١٥ نوفمبر ١٩٢٣	استقلال مصر وذكرى فريد بك

العدد	الجهة	التاريخ	الموضوع
٥٨	لوزان	٥ ديسمبر ١٩٢٢	مذكرة فى المسئلة المصرية والسودان
٥٩	«	١٠ ديسمبر ١٩٢٢	المسئلة المصرية
٦٠	مجلس الشيوخ الفرنسي	٢٠ ديسمبر ١٩٢٢	مؤتمر لوزان والمسئلة المصرية
٦١	باريس	١٠ فبراير ١٩٢٣	ذكرى مصطفى كامل
٦٢	مجلس الشيوخ الفرنسي	٢٣ فبراير ١٩٢٣	المسئلة المصرية بعد انفضاض المؤتمر
٦٣	مجلس النواب الفرنسي	١٤ مايو ١٩٢٣	المسئلة المصرية
٦٤	باريس	١١ اكتوبر ١٩٢٣	نحن والانجليز

هذه هى أهم الخطابات التى ألقاها وتخيرناها من بين ١٢٦ خطبة لغاية ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وقد ألقى بعد هذا التاريخ أي منذ عودته من المنفى أربع عشرة خطبة فى الاسكندرية والقاهرة وكلها فى السياسة والاقتصاد والمنافع العامة أيده الله وأحيانا فى ظل الحرية المنشودة والاستقلال المرجو ووهبنا جميعا من لدنه قوة ورشدا والسلام على من اتبع الهدى